

پروست ۷۵

□ الأسماء على الغلاف الأخير بالترتيب الأبجدي .

غادة السمان


بيروت ٧٥

رواية

منشورات غادة السمان



جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

 منشورات غادة السمان

بيروت - لبنان

ص ب : ١١١٨١٣

تلفون ٣٠٩٤٧٠

٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى : آذار (مارس) ١٩٧٥

الطبعة الثانية : نيسان (إبريل) ١٩٧٧

الطبعة الثالثة : شباط (فبراير) ١٩٧٩

الطبعة الرابعة : حزيران (يونيو) ١٩٨٣

الطبعة الخامسة : أيلول (سبتمبر) ١٩٨٧

الطبعة السادسة : آب (أغسطس) ١٩٩٣

الشمس شرسة وملتهبة .

وكل ما في ذلك الشارع الدمشقي كان ينزف عرقاً ، ويلهث . الأبنية والأرصعة كانت ترتجف بالحمى وترتعش عبر أبخرة الحر المتصاعدة من كل شيء .. حتى الأصوات كانت شديدة السمرة والاختناق .. ولوهلة ، خيل إلى فرح ان الشارع بأكمله سيغمى عليه . الأشجار ، السيارات ، المارة ، الباعة ، والرجل الواقف أمام باب الكراج وهو ينادي بصوت مذبوح :
« بيروت . بيروت . »

ومرت بباب الكراج حلوة صغيرة . وخيل إلى فرح ان خديها توهجا لسماع أسم بيروت ، أم تراه الحر ؟ (كلهن وكلهم يحلم ببيروت . لست وحدي ، ولكنني وحدي ذاهب لافتحامها) ..

« بيروت . بيروت » ... ينادي الرجل ذو الكرش المدلوق كأنما أغمي على كرشه من الحر . « بيروت . بيروت » ... ينغم الاسم كما لو كان يقدم راقصة للجمهور في « الكباريه » .

تأتي صبية حلوة تودعها أمها . الأم محجبة وتبدو على ثيابها رقة الحال ، والفتاة ترتدي ثوباً قصيراً جداً يكشف عن ساقين شديدي البياض والامتلاء .. يفكر فرح : (ها هي راكبة أخرى . ثلاثة ركاب آخرون وننتقل إلى بيروت . لا استطيع مزيداً من الانتظار) . وأحس بجسده يرتعش لأسم بيروت كما لو التصق به الاسم جسداً لامرأة عارية ..

أخيراً امتلأت السيارة فجأة ...

احتلت المقعد الخلفي نسوة ثلاث محجبات يغطيهن السواد من الرأس حتى

أخمص القدمين ...

وها هو يجلس بجانب السائق ، والصبية إلى جانبه في المقعد الملاصق للنافذة ،
والأم تبكي وهي تودعها . وبدأت الفتاة ضيقة الصدر بأمرها ، ترسل نظراتها
إلى السائق كي يسارع للانطلاق بسيارته . تذكر فرح أمه . إنه يكره الوداع .
حين تقال الكلمات الثقيلة الزجة مثل اللبان المبصوق . ثم إن أمه ما كانت
لتبكي . كانت ستغطي وجهها بيديها الحشتين . الملوئين دوماً بتراب الحقل .
كما تفعل دائماً حينما تتعذب ، ثم تصعد أنه خافته ولكن بلا دموع ... وهو
يتشأم كثيراً حين يسمعها تن ... ربما لذلك هرب بلا وداع ! ولكن رسالة
التوصية من أبيه إلى نيشان ، قريبه الثري في بيروت ، ستساعده وتحميه .
تراه أضعافها ؟ للمرة العشرين يتحسسها في جيبه . يتذكر فجأة أنه نسي إصفرار
ساعة المنبه معه . ونسي إقفال خزانته . هل نسي أم لا ؟

لا يدري . ليس واثقاً . هو دوماً هكذا ، يتأخر أحياناً عن الوصول إلى
عمله ، لأنه يتذكر في منتصف الطريق أنه نسي إقفال خزانته .. ويعود طوال
الطريق من دمشق إلى دوما لاقفالها . ويكتشف انه كان قد فعل ذلك ! .. دوماً
يتوهم انه لم يفلها ، وحين يعود يكتشف انه كان قد أقفلها بالفتاح مرتين .
ثم لماذا هذا الحرص على إقفالها وهو يعرف جيداً ان لا شيء فيها يستحق اهتمام
أحد ؟ لا يدري . انها خزانته وكفى ... على أية حال . الذنب ليس ذنبه أو ذنب
الخزانة ، أنه لا يصلح للعمل كموظف .. في بيروت سيفعل ما يشاء ...

وفكر بنيت : (آه الشمس ! كم هي حارة ! أكاد أختنق . والمدموزيل
إلى جانبي أغلقت النافذة خوفاً على شعرها المصفف ، وليس في الجو نسمة .
ما أسمع النساء !) ..

وفكرت الصبية الجالسة إلى جانبه . (آه الشمس ! كم هي حارة وممتعة !
انها تريدني التهاباً وشوقاً للرحيل .. أحب لسعها فوق وجهي) .. بنبرة تفكر :

(دمشق . دمشق . وداعاً دمشق) ...

والسيارة تغادر المدينة ، وتمضي في طريق الربوة والهامة . تخلف الصخرة الشاهقة على مدخل دمشق . والتي نحت عليها عاشق ما « اذكريني دائماً » ..
(لعل أسم العاشق كان : دمشق) .. لكنها ستنسى ! ..
يقرأ فرح العبارة ويعاوده الغم . يسري في أوصاله تعب غامض . يدير زر الراديو وهو يقول للسائق : هل تسمح ؟ لا يرد السائق ذو الوجه الغامض الأسى .

صوت المذيع وهو يقرأ الأخبار يملأ السيارة . لا . لا يملأها ... هنالك بكاء خافت ... النسوة الثلاث في المقعد الخلفي يبكين .
تفكر الفتاة : (لعلهن ذاهبات إلى ماتم قريب هن قضى نحبه في بيروت) .
يفكر فرح (لماذا ينتعجن هكذا ؟ تراني ذاهباً إلى موتى وعرافات القدر يشيعنني ويبكينني ؟) .. يلتفت اليهن ويحاول عبثاً ان يتبين وجوههن . يخيل اليه ان لا وجوه تحت الحجاب الأسود . مجرد أفواه منفتحة داخل جمجمة لا يكسوها لحم ولا جلد ، ولا عيون لها ، وإنما حفر اضافية ينبعث منها النواح الخافت ببطء ، كما يتصاعد الغبار والأنين من فوهات منجم انهار في الليلة الفاتنة ...

والسيارة تخلف شرنقة الحضرة وتدخل في الصحراء .. وتخفي دمشق تماماً ...

يفكر فرح : (لن أعود الا ثرياً ومشهوراً) ...
تحلم ياسمينة : (لن أعود الا ثرية ومشهورة) ...

* * *

تمتد يدها إلى المذياع وتحرك أברته تخلصاً من ثرثرة المذيع . فتطلق منه موسيقى حاملة وهي تقول للسائق : تسمع ؟
السائق المأساوي لا يرد .
الموسيقى عذبة وحنون ...

تشعر باسمينة بأنها غابة ، والموسيقى رياح تتخللها ، وتهز أشجارها وأغصانها وتطلق صياح عصافيرها وتوقظ ثعابينها . . الموسيقى تحرك فيها دائماً مخزونا خفياً من العواطف الغامضة . تشعر بأنها عاشقة ... لا تحب شخصاً بالذات ولكنها دوماً في حالة عشق ، ودوماً على استعداد لأن تحب وتلتهب وتتعذب وتنسى دون أن يدري الحبيب عنها شيئاً السينما تفعل بها الشيء ذاته . دوماً تتعاطف مع البطلة العاشقة ، وحين تخرج من السينما تجد نفسها وهي تقلد حركاتها وتسريحاتها (ما أشد وسامة الشاب الخالس إلى جانبي . ولكنه يبدو كثيباً بطريقة ما) .. تنعطف السيارة فجأة . يلتصق جسدها به . عظم حوضها بالذات يمسه عند الحاصرة . يتأملها جيداً . بيضاء جداً ، ممتلئة جداً ، سوداء العينين جداً ، كالكثير الدمشقيات . (تراها تلميذة في بيروت ؟ انها أكبر من ذلك . لعلها في الخامسة والعشرين . تراها ذاهبة لتشتري ثيابها كالبورجوازيات الدمشقيات ؟ لكن أمها تبدو رقيقة الحال . تراها مثلي تفتش عن المجد ؟)

تعالى نواح نساء المقعد الخلفي واغمم فجأة (لو أعود . لو نعود معاً أنا وهذه المرأة البيضاء السمينية . اتزوجها ؟ ربما . نقطن في بيتي بدوما . أتابع الذهاب إلى مركز عملي بدمشق كل يوم كل يوم حتى أموت . ستسمن . ستفوح منها رائحة الطبخ والشتائم . سأصير مديراً لبقية الموظفين وأصاب بالسل من تنقلي شتاء بين دوما ودمشق . بالروماتيزم أيضاً . سنشيخ وقرأشنا الضجر والقناعة وصراخ الأولاد . لا ... لن ...) وابتعد عنها حتى كاد يلتصق بالسائق .. لا . لا يريد امرأة ولا عودة . يريد بيروت . يحس بحاجة إلى الحديث عنها . يسأل السائق عن الطقس هناك مستدرجاً إياه للحوار عن أسرار بيروت ومفاتها . السائق لا يرد . السائق أخرس . له وجه يذكر بسائقي عربات دفن الموتى . كيف لم يلحظ من قبل أن هذه السيارة الهرمة السوداء تشبه سيارات دفن الموتى ؟ .. التفت إلى الندابات اللواتي كن يتناوبن النواح واختنق صدره . يقرر ان يحاور الفتاة التي هي « برسم الزواج »

إلى جانبه . لا تبدو مهمة به . عيناها على الأفق ربما بحثاً عن بيروت .
(تعبت من العمل استاذة في مدارس الراهبات . سئمت . سئمت . سئمت .
الأيام تمضي ثقيلة كجسد مخدر على طاولة العمليات . وأنا لا أفعل شيئاً سوى
التدريس والضجر وكتابة الشعر . بيروت تنتظرنني ، بكل بريقها ، بكل
إمكانات الحرية فيها ، بكل إمكانات الحب فيها ، بكل إمكانات الشهرة فيها ،
بكل إمكانات نشر قصائدي في صحفها ، وقلبي طائر جائع للتحليق . لن
أرى راهبة بعد اليوم . أوف ! . لهذا الشاب إلى جانبي وجود مزعج . انه يبدو
كقروي متلهف للحديث عن نفسه ، وسيم وفج) ..

* * *

عند الحدود تأكد لفرح ان السائق أخرس . هبط الجميع لانجاز معاملاتهم .
عادت ياسمينه وفرح ، ولكن الندابات الثلاث لم يعدن . ذهب السائق بحثاً عنهن
ولم يتبادلا أية كلمة خلال غيابه . كل منهما مشغول بنفسه وأحلامه ، ثم انها
لا تحب الرجال الفقراء وهو رقيق الحال .

عاد السائق الأخرس تفوح من صمته كهارب الشتاء . وتحركت السيارة
من دون الندابات المختفيات . يفكر فرح : (لعلهن ذبن في الليسل .. ككل
كائنات ما وراء الطبيعة) . تقول ياسمينه بمرح : لعلهن وجدن تاكسيّاً آخر ،
أكثر فخامة وجدة ومضين به ..

يستولي الغروب الرمادي على سهل شترة والسيارة تركض في عروقه
مع الليل .. تصعد الجبل . تتجاوز رأس البيدر وصوفر وبحمدون وتقرب من
بيروت ... في الجبال تشتعل النيران في الذرى ، وتتوهج ، وفي شوارع
المصايف تنفجر الألعاب النارية وصخب الناس .

احتفال عجيب يستقبل السيارة ، كل هذه النيران ورائحة الحطب المحروق ،
كل هذه الذرى النائية المضيفة .. ينقبض قلب فرح : (كاني في مهرجان
ستقدم فيه ذبيحة بشرية قرباناً لرب شرير . أنا ؟) تقول ياسمينه بابتهاج :
إنه عيد الصليب ، ما أجمل ذلك ! .

بيروت تبدو في قاع الظلمة ، مضيفة وبراقة مثل مجوهرات ساحرة هبطت
تستحم في البحر ليلاً ، وخلفت على الشاطئ لآلئها ومجوهراتها ، وأشياءها
المسحورة الملونة ، وصناديق الشر والسعادة المطعمة بالعاج والصندل والتعاويد
والأسرار ...

تهتف باسمينة بفرح : ها هي بيروت .
ينقبض قلبه ويعود إلى تحسس الرسالة في جيبيه .
يتوقف السائق بصمت إلى جانب الطريق . لقد انفجرت إحدى عجلات
السيارة . يعمل على تبديلها .

ياسمينة وفرح يتأملان بيروت من بعيد كطفلين مسحورين . يهبطان من
السيارة ، يسيران قليلاً إلى جانبها ريثما يتم السائق تبديل العجلة . وفي ضوء
السيارات الكثيفة يبدو أن هشين كأجنحة الفراش قبل الاحتراق .. يحس أن
من واجبه أن يسألها عن أسمها ، ان يقول لها أسمه ، لكنه لا يقدر . وأخيراً
يسمع صوته يقول : أحب أن أعطيك عنواني في بيروت ، لكنني لا أعرفه
بعد . تقول : وأنا أيضاً . ولكنني سأعطيك عنوان شقيقي . سأقيم معه
في البداية .

كانت واثقة من أنه سيرمي بهد الحظاظ كما كانت سترمي عنوانه لو
أعطاه إياه . كلاهما لا يهمه أمر الآخر . لا يرى الآخر . منظر بيروت أشعل
فيهما الحس بالحميمية للحظة . هذا كل ما في الأمر . وعاد بريق شيطاني
يلتهب في عينيها كلما نظرت إلى حفنة الأضواء في القاع (سأصير حرة .
فراشة) ...

* * *

حين تجاوزت السيارة عاليه استوقفها راكب . كان يبدو متعباً وحزيناً
ورث الثياب . صعد إليها وأطلق من صدره أنف عالية الصوت : آه .. آه يا
زمن .. وتنهسد فرح بصمت كئيب . وفكرت باسمينة (ما أسمع الناس
الذين يوزعون أحزانهم) .

وعاد الراكب الثالث إلى التنهّد والتكرار : آه .. آه يا زمن ..
فقد كان أبو الملا في حاجة إلى إطلاق هذه الآهات كي لا ينفجر قلبه
المريض .. قلبه المريض هو الذي جره إلى هذه الحال .. هو الذي جعله يعود
للتو وقد خلفها ، وهي الصغيرة الحلوة ، هناك في أحد قصور الأثرياء الصيفية
بعاليه ... لقد مر بمثل هذه التجربة من قبل ، وحزن كثيراً ، ولكن الأمر مختلف
هذه المرة ... إنه يحس بقلبه مذبحاً .. قالوا له إن الحزن لا يناسبه .. (ماذا تبقى
لك غير الحزن يا أبو الملا ؟) ..

اندلق ضوء السيارة على شبح يشير بيديه كليهما . توقفت السيارة السوداء
المرمة . صعد الراكب الحديد بعد أن تلفت حوله وتأمل الركاب جيداً . فكرت
ياسمين : (انه يبدو مذعوراً) ... وكان طعان مذعوراً فعلاً ... ارتدى في
مقعده وهو يرتجف . (لقد نجوت منهم هذه المرة . لقد استطعت الإفلات
من مراقبتهم وضاعت رصاصتهم في الهواء) . وعاد أبو الملا يتنهّد ويردد :
« آه .. آه يا زمن » ...

وشعر طعان بحاجة إلى البكاء .

عند الحازمية ، في مدخل بيروت ، صعد الراكب الخامس والأخير ... استند
بيده الخشنة الكبيرة إلى المقعد الأمامي وهو يرمي بجسده الضخم في المقعد
الخلفي . أجفلت ياسمين حين لمحت يده الكبيرة ذات الأصابع الثلاث ، وموضع
الأصبع المبتورة بأكملها ونصف الأصبع الأخرى الباقية ...
فكرت بدهشة وهي تتأمل وجهه السني المرهق (لم أكن أظن أن في
بيروت بؤساً أو عجائز) !

لاحظ أبو مصطفى أن الفتاة تتأمل يده بذعر . فلمها عن المقعد ودسها
في جيبه ففاحت من ثيابه العتيقة رائحة السمك . وفكر بحزن (هذا المرابي سيمتص
دمي . كلما عدت من عنده أحس بالرغبة في البكاء وهيئتي خفيفة ترعب
الفتيات) وعاد أبو الملا ين : آه يا زمن ... (كيف تركتك هناك أيتها
الصغيرة ؟ كيف ينام هذا القلب الليلة) . أما طعان فكان يتأمل الراكب الحديد

أبو مصطفى بذعر (تراه منهم ؟ تراهم شاهدوني استقل هذا التاكسي فسبقوني إلى الحازمية ودسوا أحد عملائهم ؟ .. ترى هل ستغوص في خاصرقي سكينه فجأة) ... خيل إليه أن شيئاً ما قد انغرس في جسده كغزة دبوس .. قفز في مكانه بالمقعد مذعوراً والتفت إلى أبو مصطفى . كان الرجل يبدو نصف نائم ، كمن مات إرهاقاً .. (تراه يتظاهر بالنوم ، ولن يقتلني في التاكسي وإنما سيلاحقني إلى مخبأي ؟) ... ولكن أبو مصطفى لم يكن يفكر في قتل طعان . كان يفكر بحزن في المرابي .

* * *

لم يتبادل أحد من ركاب السيارة الخمسة كلمة واحدة ... ياسمينه .. فرح .. أبو الملا ... أبو مصطفى السماك ... طعان ... غرق كل في صمته .. كل منهم كوكب وحيد معزول ولكنهم يدورون في فلك واحد ... عيونهم جميعاً متعلقة بتلك الغابة الحجرية المضيئة الممتدة أمام عيونهم المسماة بيروت .. وكل منهم يتأملها بعين مختلفة .. لم تكن هنالك بيروت واحدة ... كانت هنالك « بيروتات » ... السائق وحده بدا لامبالياً وحيادياً مثل ملك الموت . في مدخل بيروت ، بين الحازمية وفرن الشباك ، انتشر بعض الباعة تحت الأشجار . في الضوء القوي شاهد فرح بضاعتهم العجيبة . أكياس من النايلون مملوءة بالماء تسبح فيها أسماك صغيرة ملونة ، وقد علقوها فبدت وكأنها تسبح في النور الشفاف ... شهقت ياسمينه ! ما أجمل هذا ! ... ولم يبد على ركاب المقعد الخلفي أي اهتمام بذلك ... أما فرح فقد اكتأب كثيراً وبدت له تلك السجون الشفافة للأسماك المتدلية في قلب الليل مثل قناديل الموت . ووجد نفسه لا يدري لماذا يردد كلمات دانتي المكتوبة على باب الجحيم :
يا من تدخل إلى هنا ، تغلّ عن كل أمل ! ..

لقد أيقظت الشمس جسدها ... ولساته .. وصوت اصطخاب الأمواج ،
ورائحة الملح ، واهتزاز اليخت في قلب البحر ، والويسكي الذي لم تذقه من
قبل ، والسماء الزرقاء الشاسعة التي تفيض رضى وهدوءاً كأنما تبارك لحظات
اكتشافها لجسدها .. والشمس ، وذلك الإحساس الصاعق المفترس حين تعرت
ياسمينة تماماً للمرة الأولى في حياتها تحت الشمس ..

(لم أخلع ثيابي بأكملها من قبل إلا في الحمام ! .. وكنت دوماً أرنديها
قبل خروجي متسترة بالبخار الكثيف والنور الشاحب ... بلى .. خلعتها كلها
في بيت رجل في دمشق . يومها أغلقنا النوافذ كلها . اسدلنا الستائر
كلها . اطفأنا الأنوار كلها . أقفلنا الأبواب كلها . ومع ذلك ظلت
أصواتهم تنزف من الظلام وترقص على الجدران مخدرة من « الإثم » الذي
سيقع .. كانت صيحاتهم وصيحات أُمي تخرج من جسدي نفسه كأني مسكونة
بهم . كلماتهم عقارب تغطي جسدي وتلسهه .. وصاياهم كائنات اسطورية
كديدان المقابر تركض فوق في الظلام وتأكلني وتطفئ شهواتي . وحين
لمسني ، انطلقت الأصوات كلها صارخة دفعة واحدة كجوقة رعب ، ولعله
سمعها ، فقد عجز عن امتلاكها وانطلقت هاربة من بيته . ولم أره بعدها . ولم
أكررها) الشمس الشمس ...

تعرض جسدها الناصع البياض للشمس .. شمس أيلول السرية التي تلسع
حتى حينما تكمن عبر غيمة .. تركها تطرد من صدرها أصواتهم .. تظهر

مسامها من العقارب والديدان ، وها هي ناصعة متوردة نقية كياسمينـة
دمشقية ...

السلحفاة تتحرك أمامها ببطء فوق خشب اليخت . وتسحب جسدها
وتزوي في الظل ، ثم تلملم رأسها إلى الداخل وهي تغمض عينيها احتجاجاً
على الشمس والحر ... تضحك ياسمينـة .. مسكينـة هي السلحفاة .. انها لا
تستطيع أن تخلع صدفتها مثلها لتستمتع بالشمس .. أم تراها تعاني من دوار
البحر ؟ (في جيبيل طاف بهما شاب بين الآثار الفينيقية ، ثم أصر على ان
يبيعها السلحفاة بصفقتها فينيقية عمرها أكثر من ٣٠٠٠ سنة ! سألت نمر يومها ،
وكان قد طاف بها بين بعلبك وصور وطرابلس : هل تعمل دليلاً سياحياً
لكل فتاة تعجبك ؟ رد ببساطة : نعم . هذه من تقاليد الشباب اللبناني . الوطن
أولاً !) ..

أطفأ نمر محرك اليخت ، وأفلته للموج يمضي به حيث يشاء ... ولريح
المصادفة .. وانطلق مثلها يركض على سطح الزورق عارياً كسمكة .. واحست
بأنهما يعيشان أسطورة الخلق الأولى ، واليخت الصغير صدفة لؤلؤية اللون ،
والسماء الشاسعة لم تكن قط أكثر صفاء ... وثلوج أعوامها السبعة والعشرين
تذوب .. الثلوج التي هطلت فوقها طيلة عشرة أعوام من قبعات الراهبات
حين كانت تعمل مدرّسة ..

انها لا تستطيع أن تصدق كيف تركت جسدها يتحرك طيلة هذه الأعوام
دون أن تكتشفه .. كانت لها مغامرات سريعة وعابرة . وكان جسدها يتجنب
التجربة دائماً .. كيف حملت جسدها طيلة هذه السنين كعبء ، كجثة ،
كمجرد أداة للتنقل وحمل الطباشير .. جسدها الثمين تكتشفه لأول مرة
كعالم من اللذات .. ولو لم تأت إلى بيروت لظلت إلى الأبد تجهل كيف تستطيع
ان تشتعل ، وان تنتفض ، وان ترقص بجنون تحت لمساته .. اقترب منها ...
رذاذ الماء في شعره الأشقر يضيء في الشمس كآلاف المصابيح الدقيقة ...
تغمض عينيها وتظل ترى جسده الأشقر الملوّح بالشمس ... جسده الصلب

الرشيق الذي ينم عن الثراء ، فالعضلات ليست متورمة كما يحدث لأصحاب
المهن اليدوية ، وليست ضامرة كما يحدث للجوع ، وإنما هي ممتلئة في انسياب
بديع ... أنها حصيلة توفر الوقت والمال اللازمين للرياضة المستمرة غير
العنيفة ... وهي تكره فقرها وتحب الثراء وتحب جسده الذي يعلن عن ثرائه
بوقاحة في ذلك الأنسجام المذهل التكوين ... وحتى قدماء تعلقان عن ثرائه ...
قدمه ناعمة ، وليست فيها أية تورمات أو تشوهات من تلك التي تنمو في أقدام
انصاف الفقراء المضطرين إلى ارتداء الحذاء نفسه حتى يبلى مهما كان قاسياً
وموثلاً ومشوهاً لأقدامهم ... وجلد كعبه كبشرة الأطفال ، لا شقوق فيه
كأقدام الحفاة والبؤساء .. كل ما في ثيابه يعلن عن ثرائه ، وحين يخلع ثيابه ،
فكل ما في جسده ينم عن حكاية هذا الثراء الطويل .. فكرت ضاحكة
(انه ليس فقيراً مثلي . لقد ولد وفي فمه دفتر شيكات . وولدت وفي فمي
كميالة مستحقة) ..

آه ماذا يستطيع جسده أن يفعل بها ... جسده المعطر بزيت البحر الثمين
وبنعومة الرفاهية ... لا شيء في العالم يشبه نشوة الالتصاق برجل محبوب ،
حينما يتم ذلك تحت الشمس .. وفي وضوح النهار .. وفي عرض البحر حيث لا
صوت غير اصطخاب الأمواج ... ويتحول قلبها من ساعة رتيبة إلى طبل يضج
بالرقص في غابة استوائية للعراة ... وتشعر بأنها تنزلق إلى قاع بحر دافئ
لزج ، شديد الاصطخاب ، والأسماك الملونة تركض أمام عيونها ، والزبد
شديد ، وتشهق . والموج يكبر ، وتئن ، والسماك الصلب يركض على فخذها
كنصل شمسي .

وفجأة ،

تسمع دويّاً رهيباً لانفجار عنيف .. يهتز الزورق بأكمله وتعود دفعة
واحدة من الأعماق إلى الواقع ... وقبل أن تسأل ماذا حدث يدوي انفجار
آخر ، ويخيل إليها ان بيروت عند الأفق ترتجف كأنما ضربها زلزال ... ماذا
حدث ؟ يقول نمر بصوت لامبال : لا شيء .. انها الطائرات الاسرائيلية

تحترق جدار الصوت كعادتها . قربي نهدك .. يدوي انفجار ثالث .. تلملم
نفسها عنه والسلحفاة تختبئ بأكملها داخل صدفتها . يقول نمر متضايقاً :
قلت لك لا شيء . طائرات اسرائيلية فقط . قربي نهدك ...
— ولكن هذا رهيب .

— انه روتين اعتدنا عليه . انهم لا يفعلون شيئاً ولا يؤذوننا . يريدون
ارهاب الفدائيين فقط . قربي نهدك ...
كالسلحفاة انكمشت . شعرت بأن رنخاً شريراً كبيراً يخلق في
الجو ، يحجب عنها الشمس ويلقي بظله المكهرب فوقها ...
« لا يؤذوننا » ..

وتذكرت كيف كانت تمطر طائراتهم موتاً فوق دمشق منذ أقل من عام ..
وكيف كانت سعيدة اللحظة لأن زجاج بيوتهم فقط تحطم بينما اشتعل البيت
الملاصق لهم . أرادت أن تقول له ذلك ، فلم تجد صوتها .
دوي انفجار آخر ، وقال نمر بشراسة وهو يغمرها بجسده الأشقر الثري :
قربي نهدك !
فقربته .

(آه كم أنا ضائع ووحيد !)

والسبت بعد الظهر في شارع الحمراء ببيروت .. وقف فرح يتأمل الكرنفال
وقد ألصق ظهره على العمود الرخامي قرب مقهى « كافيه دي باري » ...
والفتيات باريسيات المظهر والسيقان ... لم ير طيلة حياته عدداً من السيقان
العارية كالتي شاهدها في نصف الساعة الأخيرة ... والشبان يسرون كأنما
يرقصون .. الكل يمشي في إيقاع راقص كأن الشارع بأكمله يتحرك وفقاً
لموسيقى مجنونة غير مسموعة بالنسبة اليه . وتفوح رائحة العرق الشاب ممزوجة
بعطر خفي حار .. وقف فرح يتأمل ذلك كله بدهشة ..

(آه كم أنا ضائع ووحيد .. متى أجد نيشان ؟)

منذ وصل بيروت وهو يتسكع مسكوناً بالدهشة ، كل تلك الأقدار في
سوق الخضار ، كل ذلك الفقر والبؤس في البرج وأكثر الأحياء ، وكل تلك
اللامبالاة في شارع الحمراء .. وكل ذلك الثراء .. السيارات الفخمة والنساء
والمجوهرات والعطور والكلاب المرفهة ، الكلاب ذات الثياب المزركشة التي
تطل من عيونها نظرة متعالية ، حتى أنه حين داس على قدم كلب وجد نفسه
يقول له معتذراً : عفواً يا أخ !

(آه كم أنا ضائع ووحيد !)

أمام مقهى « الهورس شو » كان الناس قد التفتوا حول رجل يُرقص
قرداً صغيراً .. كان القرد يبدو خائفاً من الجمع ، ولكنه أيضاً خائف من

عصا معلمه .. وكان فرح خائفاً من الجمع والقرد والقرد . القرد يقوم بحركات ساذجة . ولكن الجمهور الخارج من السينما لا يزال في مزاج غوغائي ، وقد وجد في القرد فرصة للتنفيس عن بقية الصفيير المكبوت في الصدور ، والذي لم تفرغه بأكمله افلام الكاراتيه والرعب والعنف المعروضة في الشارع ... كان ضحك الجمهور وتصفييره والتفافه حول القرد منفصلاً تماماً عن أداء القرد ، كأنهم يتخذون من القرد حجة لتفجير أحاسيس مضغوطة غامضة .. وفجأة دوى انفجار هز الشارع والقرد والجمهور والقرد وفرح .. لم يبد على الناس رعب أو ضيق ، بعضهم رفع بنظره إلى السماء وبعضهم لم يكلف نفسه عناء ذلك ، وإنما ظل منصّباً باهتمامه على القرد ..

سأل فرح رجلاً مقطوع الذراع ، نصف متسول ، نصف بائع « شيكلتس » : ماذا حدث ؟

— انها الطائرات الاسرائيلية .

— تضرب ؟

— لا . لا ادري . يقولون انها تصدر اصواتاً فقط ...

ودوى انفجاران متتاليان متلاحقان ، ولكن الجمهور لم يرفع عينيه إلى السماء وإنما ازداد حماساً في حث القرد على الرقص .. (انهم يخترقون جدار الصوت معلنين عن وجودهم العدواني المتحدي .. ولا أحد ينتبه !) ولكن القرد حين سمع الانفجارات غطى وجهه بيديه وأقعى على الأرض مرتجفاً ، رافضاً الاستجابة لأوامر معلمه ، وحين ضربه بالعصا ظل مغطياً وجهه وكأنه لا يريد أن يرى ما يدور .. دفن وجهه على الرصيف وأدار موخرته لكل جمهوره وصار يبكي بصوت حزين ...

وانفجر الناس ضاحكين ...

ووجد فرح نفسه يردد : مجانين ... مجانين ...

وغطى وجهه بيديه ... واجتاحه الدوار إذ تذكر ما حدث له في دمشق حين حلقت الطائرات نفسها منذ أقل من عام ...

وتعالت أصوات الجمهور مطالبة القرد بالرقص ، وكانت حرائق دمشق
تشتعل داخل رأس فرح ، وتتناثر الجثث المتطيرة الأعضاء ... ورائحة اللحم
البشري الملتهب .. وصوت انهيار الجدران ..

ووقف على جانب الرصيف ، وقد اجتاحه احساس مرّ يشبه التقيؤ والبكاء
(آه كم انا ضائع ووحيد !)

وتحسس رسالة أبيه إلى نيشان .. انه عاجز عن الوصول اليه .

(اتسكع في بيروت وفي جيبي رسالة التوصية من أبي إلى نيشان : قربي
الذي لم أراه منذ صغري .. منذ جاء إلى بيروت ونجح وصار مثلاً أعلى لكل
أولاد قريتنا دوماً .. لن يكون من الصعب علي ان أميزه وله في كل مجلة صورة
في صفحات نجوم المجتمع ، وهو يتسم للكاميرا .. وهو يتحدث ويشير بيديه .
وهو يراقص حسناء عارية الظهر . وهو يمسك كأس الويسكي برشاقة ...
وتفوح من صوره رائحة العطر والعدوبة والمال .. آه المال ، والشهرة ، والنساء ،
والمجد .. و ... و ...) ولكنه لم يكن يدري مدى صعوبة لقاء رجال مثل
نيشان : رئيس مجلس ادارة شركة « نيسكو » للعلاقات العامة ، والمدير
التجاري للماركة أحذية شهيرة ومعجون أسنان جديد ، ووسيط صفقة أسلحة
كبيرة ، ثم إنه بالإضافة إلى بيع الدبابات يتعاطى أحياناً إنتاج بعض الافلام
التجارية الناجحة و (خلق) الفنانين الجدد ، وقد لمع في العام الفائت مطرب
أطلقه هو وترعمت حملة الدعاية له المجلة التي يملك جزءاً هائلاً من أسهمها
رغم استقالة ناقدتها الفني !

(اتلفن لنيشان . أضع القطعة النقدية في الهاتف العام وأدير الرقم .
تضيع القطعة النقدية ولا تأتي المخابرة . لا أشعر بأن الهاتف معطل ولكن حظي
معطل . أقرّع نفسي على تشاؤمي وأدخل إلى دكان أول بائع سندويش . ينظر
الي باحتقار ويرفض السماح لي باستعمال هاتفه . شيء ما في وجهي يدعو
الناس إلى اضطهادي .. شيء ما يشد الي الرجال الأقوياء كي يمارسوا سلطتهم
علي . أبي ، ذلك القروي القوي ، كان دوماً يتلاعب بقدرتي . دوماً يرمي

بكتبي التي ادمنها إلى النيران التي يحرق بها أعشاب الحقل الطفيلية والضارة
صارخاً : يجب أن تعمل كنيشان ، لأن تقضي عمرك بالتفكير والوسوسة .
وحق حينما كنت أخرج إلى الأشجار لأغني ، كان أبي يصرخ بي : « هذا
الصوت تستطيع تحويله إلى ثروة ... سأسلمك لأبن خالتي نيشان ليصحبك في
القالب المناسب ! .. قالب من ذهب » ..

ذهب .. ذهب .. وأنا أحب الذهب والمال . المال يعني الحرية . المال
يعني الوقت . المال يعني شراء الكتب والاسطوانات والسفر وعدم الانحناء
للاستاذ عادل مدير المكتبة الوطنية حيث كنت أعمل . المال يعني النساء
الجميلات ذوات الأيدي الناعمة والأظافر الطويلة الملونة . المال .. ولكن
ابن نيشان ؟ ..

وأخيراً رد هاتفه ، خاطبني امرأة بالفرنسية . لم أفهم شيئاً . في المخابرة
السادسة توصلت إليها ان تحدثني بالعربية فأغلقت السماعة في وجهي) ...
القسوة ... هنالك مناخ من القسوة يحسه بشدة كلما تحرك في هذه المدينة
العجيبة .. انه يسمع باستمرار أصدااء بكاء طويل تردده جنبات المدينة ... منذ
أول ليلة حل بها وصوت النواح الغامض يطارده ويستوطن صدره ... إنه
يحسه كما يحس الرادار المرهف وجود أشياء لا تعيها الحواس المجردة ... وهو
لسبب يجهله كان دوماً يمتلك حاسة التقاط اشارات الاستغاثة ... ربما لأنه يطلقها
 باستمرار .. ربما لأنه يعي باستمرار وعياً مبهماً بأنه سفينة غارقة لا مفر — كما
كل انسان — كل سفينة غارقة لا مفر ... قلائل يعون ذلك .. المال .. الشهرة ..
النساء .. مخدرات سيجربها لينسى غرقه الأكيد ، وان كان ليس واثقاً من
مفعولها ، لكنه سيجرب ولو تحالف مع الشيطان ... والتجربة أصعب مما توقع ،
وشيء ما في مناخ هذه المدينة يسممه ببطء ، كأنه يستنشق فيها غازاً ساماً
فريداً يغلفها ، وقد ألفه الآخرون وقرروا التعايش معه .. ولكن ، لماذا هذه
التفسيرات كلها ؟ لماذا لا يقرر ببساطة انه « موسوس » وأن صوت النواح
الذي سمعه فجر ليلة وصوله إلى بيروت ملأه بالتشاؤم والغم من رحلته كلها ؟

(« فندق العسل » بساحة البرج . لأعسل فيه .. لا شيء غير المראה
تقطر من الجدران العفنة القذرة ، ومن صرير الدرج الخشبي العتيق ، ومن
عيون النساء المهترئات اللواتي يتحركن كأشباح مجزرة تاريخية وهن يتسلن
إلى غرف الرجال الفقراء والمتعيين أمثالي ... ورائحة البق الحادة التي تلفوح
من كل شيء ...

عند الفجر تماماً استيقظت على صوت استغاثة حادة ...
كان الصراخ حاداً ورفيعاً . وبدأ لي ، في خيوط الفجر الأولى وصمت
المدينة ، كما لو أنه يغطي وجه العالم ...

وحين قفزت إلى النافذة عبتاً حاولت فتحها . كانت صدئة وعتيقة .
ومن خلف شقوق الزجاج نصف المحطم والمتماسك لم أشاهد شيئاً . لكن
الصراخ عاد يتصاعد ، طويلاً وحاداً مثل صوت انسان يعذب .. لم يكن
صرخة امرأة أو رجل ، بل كان صرخة قلب يتوجع حتى الانفجار والاعتقاد
في آن واحد ... كأنه صوت قلب المدينة كلها ...

ركضت إلى الصالون وكدت اتعثر بالأثاث العتيق المنخور ، ثم إلى الشرفة ..
لم أر أحداً أو شيئاً ، لكنني ظلمت أسمع الصوت .

ركضت أوقف مستخدم الفندق . قال غاضباً وهو يراي أرتجف : « يبدو
أنك غريب . هذا ممكن الحدوث في أية لحظة . ألا تعرف أن شارع « المتني » ،
حيث المومسات ، خلف ساحة الشهداء وفندقنا ؟ ثم اني لا أسمع الآن شيئاً ! »
عدت إلى غرفتي ، وإلى رائحة البق في الوسادة . حاولت أن أنام . نمت ،
وحلمت ، أم تراني لم أكن أحلم ؟ حلمت بين النوم واليقظة بصلب مصنوع
من أنابيب المياه ومواسيرها الصدئة ، وكنت مربوطاً إليه بأذنان الفئران ،
والنيران تشتعل حولي ، وامرأة تضحك وتقول إنه عيد الصليب ، وأنا أكاد
أختنق . الدخان يخنقني ... وأسقط أسقط وفي عيني أضواء نيون السينما
المجاورة كالشفرات تذبذبي ، واسم الفيلم مكتوب على ساق طويلة عارية :
يا دلع دلع ... أختنق بالدخان ويخرج عيوني وهج النار ...

استيقظت مذعوراً . كانت النار قد شبت في الفندق العتيق والزعيق
يتعالى ... وهربت كالمجنون . وحين نجوت وصرت بعيداً على الرصيف
وقفت دون مبالاة بنجاتي) .

* * *

لا يدري كم من الزمن انقضى وهو تائه في شارع الحمراء والأزقة
المفرعة عنه ، لكنه شاهد التراد على أحد الأرصفة نائماً وقد احتضن
قرده النائم أيضاً ... ارتعد (أية علاقة جهنمية تربط الذين يتحالفون
من أجل لقمة العيش حتى ولو كان أحدهما قرداً ؟ !) وجد نفسه يفكر
بنيشان من جديد ... (ذهبت إلى عنوان نيشان بعد أن يئست من الهاتف
والسكربتيرة الفرنسية . البناء ضخم . السيارات تركض إلى فجوة في داخله .
انتظرته على الباب عدة أيام ولم أره . البواب يمنعني من الدخول ويرقبنني
ككلب حراسة مرتاب . حقبة سفري في الفندق لا تزال مغلقة . لم افتحها .
ولم أجروا على اخراج اشيائي منها . ولا أدري لماذا .

وأخيراً نجحت في مغافلة حارس البناء والتسلل إلى الداخل . وضعت طويلاً
بين أربعة مصاعد تطبق بابها الحديدي علي إذا لم أخرج راكضاً دونما مبالاة
بجسدي غير الحديدي ... وأخيراً قرأت على الباب : نيسكو . شركة العلاقات
العامة .. قالت لي فتاة تضع النظارات البيضاء وتعلق شفاهها بعصبية بعد كل كلمة :
« نيشان بك في أوروبا . عد بعد أيام ... ومعك الرسالة . ماذا كان اسم صاحب
التوصية بك ؟ »

— أبي عاشور عاشور من قرية دوما .

قالت بقرف ساخر : تشرفنا) .

نظرتها لا تزال تطارده بطريقة ما .. يشعر بأن بيروت كلها تنظر إليه
هكذا ، ويسمع باستمرار صوت مستخدم الفندق كالمطرقة يقول :
(معك قرش بتسوى قرش) .

ولكن نقوده تكاد تنفذ . انه لا يساوي شيئاً في هذه المدينة المفترسة ...

تأملت حوله . كانت السيارات تركض مسعورة . والنوافذ المضاعة تُحْدَقُ به بلا مبالاة ... مئات البيوت .. مئات النوافذ .. آلاف الوجوه خلف النوافذ .. كل تلك الحياة التي تدور هناك ، ويكاد دقها يلفح وجهه وهمهاها الحميمة في أذنيه . وهو وحيد وحيد لا أحد يبالي به ، كأن المدينة المزدهمة وجدت اعتذيب الوحيد .. سيدخل إلى أول مطعم ويلتهم وجبة شهية ولو نفدت نقوده .. انه لا يزال يحب الطعام اللذيذ ولهم في هذه المدينة أساليب بارعة في جعله شهياً . صحيح انه يعاني من هضمه فيما بعد ، لكنه لا يستطيع ان يقاوم ...

يدخل إلى مطعم بوباي . يحب (البيزا) التي اكتشفها في هذه المدينة . ينتظر طعامه بشغف . أمامه عاشقان . من خلف جريدته يرقبهما . (مثل كل الناس الوحيدين في المطاعم أظواهر بالإثمهاك في قراءة جريدتي بينما استرق النظرات إلى السعداء) . يقرب كل منهما وجهه من الآخر حين يتحدث كأنه يرشف أنفاسه .. ما أعذب منظر العشاق وما أقساه ! .

(لم أجلس أبداً هكذا مع امرأة نرشف النبيذ في الضوء الشاحب .. يدي تلمس فخذها تحت الطاولة .. نرتجف ونحلم بكل الملذات التي يمكن ان نمارسها معاً) . يأتي الجرسون بالطعام للعاشقين فيقطعان غزلهما فجأة وينصرفان اليه تماماً كأن كلا منهما جالس وحده .. يخيب أمل فرح ، ثم ينصرف عنهما بدوره إلى صحنه العامر ... يمسك بزجاجة « الكيتشاب » ، (عصير البندورة المكثفة) ويخفضها قليلاً ثم يفتحها بصعوبة .. يحدث شيء نادر الوقوع : يخرج سائلها في شبه انفجار . ويلطخ ثيابه ووجهه ويديه أحمرها الرطب القاني ... يتأمل فرح نفسه بذهول . ويغمره احساس مرعب حين يرى نفسه مغطى بما يشبه الدم .. يحس بأنه مثل انسان قتل للتو وما زال الدم الطري يغطيه ذبيحة مضمخة بالنزف ... يتذكر ان ليلة وصوله إلى لبنان كانت ليلة عيد الصليب ، ويتذكر نواح الصوت المجهول عند الفجر .. ويرى الدم الآن ، فيمتلئ قلبه غماً ، وينادر المطعم هارباً هائماً على وجهه دون أن يرى الجرسون الذي

جاء معتذراً وفي يده خرقة مبللة ...

(آه كم أنا ضائع ووحيد !)

وحين وصل إلى « فندق العسل » فوجىء ببسطة جديدة لبائع الاسماك الملونة ... أكياس النايلون المملوءة بالماء تسبح فيها أسماك صغيرة للبيع ، وهي تبدو في وهج الضوء المنبعث من خلفها وكأنها تسبح في النور مسافرة في الزمان سجيناً أبدأ في الوعاء الشفاف ... (آه كم أنا وحيد وحزين ، سجين قدر مجهول كهذه الأسماك !)

توقف فرح أمامها ، يتأملها وهي تركض بيأس وتنطح برؤوسها جوانب السجن الشفاف . ولا يدري لماذا شاهد سمكة منها تحمل وجهه هو وملاحظه هو تسبح بيأس ورأسها يصطدم باستمرار في جوانب كيس النايلون . وهي عبثاً تفتش عن كوة تعود منها إلى البحر ... ولكن لا خلاص ... لا مفر .

بائع اليانصيب يحاصره . يريد أن يبيعه .

ورقة يانصيب له هو ؟ .. يا للنحس !

ولكنه اشترى ورقة ! ..

حين استيقظ أبو مصطفى السماك من نومه كان الظلام دامساً . قرر :
هذا وقت العمل . انا واللصوص نعمل في وقت واحد ...
جر نفسه من فراشه الضيق ، ولاحظ أن أحشاء الوسادة بدأت تتدلى من
القماش المهترىء .. سعل بشدة وأحس بأن مفاصله ضعيفة لن تقوى على
حملة . لكنه حين فكر « بالمصباح السحري » وجد في نفسه قوة لم يكن يحلم
بها .. انه يمتلك قوة وتوقداً وشوقاً إلى لقائه ، ويسارع إلى البحر ...
المصباح السحري ! ..

ثلاثون عاماً وهو يخرج إلى الصيد ، كل ليلة .. كل ليلة دونما انقطاع ..
ثلاثون عاماً وهو يحلم بأن المصباح سيخرج ذات يوم من البحر ليعلق في
شباكهم ... سيكون عتيقاً وصدئاً لكنه سيعرفه .. سيدعكه ثلاث مرات فيتصب
جني المصباح عموداً من دخان ، مهيباً كالليل ، ثم ير كع بين يديه ويقول له :
شبيك لييك عبدك بين يديك ! .. وسيطلب أمنياته الصغيرة كلها : بيت
نظيف . دخل معقول . رزق يكفي الأولاد ونفقات علاج رثته المصدورة ..
سيتمل الجني بحسد ... سيسأله من هو . وإذا وجد المرأة في نفسه ، فسيسأل
الجني عن اسمه ... سيسأله : « لماذا تقدر على تحقيق كل شيء وأنا لا أقدر ؟ »
ثلاثون عاماً وهو يز داد تقزماً ، ومصاعب الحياة تجلده ... يشعر بأنه
يتضاءل ويذوي مثل عملاق مسجون في قمقم الجسد ...
لكنه يحلم بعملاق المصباح السحري .. وهذا الحلم وحده جعله يستمر ..

انه سره الذي لم يطلع أحداً عليه غير ابنه مصطفى .. وحتى حينما كان رفاقه الصيادون يسخرون من عادته في احصاء غلته سمكة سمكة حين تطلع الشباك . لم يكن ليقول لهم انه لا يعد السمك وانما يفتش عن المصباح !

* * *

في مكان ما بحجي (الأوزاعي) الملاصق لشاطئ البحر ببيروت . في أزقة تراثية ضيقة تفوح من البيوت الملاصقة لها رائحة الياسمين والبخور وتنبأك نارجيلات متوقدة ، كان الصياد « أبو مصطفى » يمضي صامتاً في طريقه إلى البحر ، وخلفه ابنه الأكبر مصطفى ...

ضباقت الدرب فجأة ، وسقطا في الظلام ، وكان أبو مصطفى يعرف الطريق التي سلكها كل ليلة طيلة ثلاثين عاماً ويستطيع أن يمشيها مغمض العينين ، لكنه أضياء مصباحه (البيل) لاجل ابنه مصطفى الذي يخرج معه إلى البحر لأول مرة وهو يسمعه يتعثّر في خطاه ... دائرة مضيئة صغيرة ارتسمت من (البيل) على الأرض ، وبدأ مصطفى يبحث عن موقع صلب لخطواته وقد ثبتت نظراته على بقعة الضوء المتحركة ، وداهمه إحساس عميق بأنه انتقل فجأة إلى عالم آخر .. وسار خلف والده بصمت لأن الدرب التي تصب إلى البحر لم تعد تتسع لأكثر من شخص واحد ... وصلا إلى مكان عليه لافتة خشبية منحورة سطرت عليها بخط رديء عبارة : مقهى الليل . ولاحظ مصطفى أن المقهى ذو أرض تراثية تعادل مساحة غرفة متوسطة الحجم ، يضيئها مصباح زيتي (لوكس) ، وفي أحد أركانها سرير صديء تمدد فيه صاحب المقهى ، ثم منضدة واحدة وبعض الكراسي العتيقة وابريق فخاري للشرب .. وقد ازدحم في المكان عدد من الرجال الأشداء ، زنودهم مفتولة ، لوحتها قسوة الشمس والرياح فبدت في ظلال المقهى مثل أغصان نحاسية صلبة ... لفت نظر مصطفى وجود شبان صغار بينهم ، في مثل سنه تقريباً ، ولكن نضارة الشباب في وجوههم استحالت تحت وطأة قسوة الحياة إلى عنفوان قاس حزين لا يتفق وصغر سنهم .. رحب بعضهم بوالده ، بينما راقبوه بفضول أنيس .

وأشار أبو مصطفى إلى ابنه بيده ذات الأصبع المقطوعة . وقال بفخر وبشيء من الحزن :

هذا ابني مصطفى بصفت البكالوريا .. سترك المدرسة ويتعلم الصنعة لانني تعبت ... سيحل محل أخيه المرحوم علي .

وسهل سهلاً مقطوعاً مخنوقاً ثم بصق في الظلام ، ونخيل لمصطفى انه يلمح نقاطاً من الدم .. لم يعلق أحد . ولاحظ مصطفى ان الثرثرة هنا قليلة .. تذكر حواراً دار مرة بين أربعة من أساتذته ودام ساعتين كاملتين ! هنا لا ثرثرة ... انضم اليه وإلى أبيه ثلاثة رجال وتابعوا سيرهم نحو الشاطئ مباشرة عبر طريق رملية شديدة الانحدار والالتواءات . كان هناك زورق صغير . خاضوا في الماء عدة خطوات ثم صعدوا إلى المركب . كاد مصطفى ينحني لطفي أطراف سرواله كي لا يتل . لكنه لاحظ ان أحداً لم يلتفت إلى ذلك ، فخاض في الماء مثلهم وأحس بالسعة شبه باردة . (لقد اقترب الخريف . وبدلاً من المدرسة سيكون علي أن أدخل في عالم أبي الوحشي .. لقد بدأ خريف عمري دون أن أحيا ربيعي . هكذا نحن . نعيش خلصة . نتعلم خلصة . نقرأ الكتب خلصة . نحب خلصة . ونكتب الشعر خلصة . ونموت خلصة) .

جلس الجميع في المركب بسرعة ونظام وهدوء وتحت جناح الظلام تماماً (كما في أفلام المغامرات التي أذهب إليها خلصة) ..

كاد مصطفى يقول شيئاً . معلقاً على لسعة ماء البحر الذي بلله حتى الركبتين . لكن صوت ضربات المجذافين اسكته . كان انشودة مثيرة ، يزيد بها اثارة ابتعاد القارب التدريجي عن الشاطئ وعالمه ، والموت التدريجي لأصواته وروائح ، وحتى تفاصيل بيوته وأزقته .. هذه أول مرة يخرج فيها مصطفى إلى البحر . كان والده قد أقسم يوم مولده أن لا يحمله إلى البحر حتى واول نزهة ، وان يبقيه بعيداً عن بؤسه ومصيره ، وأن يعده لحياة أفضل ويعلمه . وها هو المعجوز ينهار أخيراً تحت وطأة رهن قاريه « الفانوس السحري » وعشرة أفواه تفتح ثلاث مرات في النهار طالبة العلف ، والغلاء والمرابين والقسوة والشقاء ... وأخيراً المرض .. كان ابنه علي يساعده ، ولكن بعد فاجعة موته

لم يبق أمام أبو مصطفى الا ابنه البكر يعينه ..
دقائق ، وربما أكثر ... ولم يعد مصطفى يميز فانوس « قهوة الليل » ،
واختلطت أصداء أبواق السيارات وأغاني الترانزستورات واستحالت إلى
همهمة نائية خافتة لا تكاد تسمع عبر صدى ضربات المجذافين . ثم كف
أحدهم عن التجذيف ، وحين التفت إليه مصطفى متسائلاً وجد أنهم كانوا
قد التصقوا بمركب بخاري كبير ، قرأ بصعوبة في ضوء اللوكس المرتجف
اسمه نصف الممحوّ : « الفانوس السحري » . صعدوا إلى المركب . ربطوا
إليه القارب ذي المجذافين . أداروا محركه . رفعوا مرساته وانطلقوا إلى عرض
البحر .

صوت المحرك المزعج ورائحة دخان مازوته مزقا سكينه البحر وهيبته .
واستيقظ مصطفى من عالمه الشاعرى الرؤى ، ووجد نفسه يعود من خلجان
مرجانية الصخور ، فيروزية السماء والاحلام ، كان قد طار إليها على أصوات
ضربات المجذافين والصوت العذب لانحسار الماء عنهما ، ويرتطم بالبحر
الواقع ، بحر بيروت القاسي ، بحر حقل اللغام والحرب بين الانسان وبقية
مخلوقات الطبيعة من أجل البقاء ... (لقد انتهى زمن القراءة والكتب التي
استأجرها من المكتبات والأصحاب .. وداعاً يا زمن كتابة الشعر ... ما
جدوى الخبر أمام هذا البحر ؟)

سأل والده : متى نبدأ الصيد ؟ .

— نطرح الشباك الآن... أضواء اللوكس تجتذب الاسماك كما الفراشات. أنظر.
اقرب مصطفى من حافة المركب . انحنى . شاهد في ملاصقة النور عشرات
الاسماك الصغيرة ترقص فرحة رقصة الموت ...

— نطرح الشباك الآن ، لكن عملية الصيد الجدي لا تبدأ الا بعد غياب
القمر أو مع خيوط الفجر الاولى ! ..
— لماذا ؟

— لان ضوء القمر الساطع يبطل غالباً مفعول نور (اللوكس) فيقل

تهافت الاسماك على الشباك ..

وفكر مصطفى : (يا لطرق الصيد البدائية. يجب أن نفكر بوسائل أخرى) ..
وكان والده حدىس ما يدور في خاطره ، فتابع قائلاً :
— بأكثر من طريقة نصطاد — حسب فصول السنة — وكلها بدائي ،
لان ما نملك من أدوات ووسائل بدائي أيضاً . صنارة . فخوخ . فشابك .
وأحياناً ديناميت يأكل أصابعنا ... كل شيء ضدنا ، البحر ، والدولة ! ..
رغم أحزان والده عاود مصطفى مزاجه الشعري . قرر أن يكتب قصيدة ..
سيقول فيها (هذا القمر الذي غزاه الرواد ، لا يزال يمارس مفعوله الاسطوري
على الاسماك والعشاق . وها هو يقف في كبد الليل .. حارساً لاسماك البحر
يحميها من مكائد الصيادين وفخاخهم) ...

ولكن ، هل هو حليف الصيادين أم حليف الاسماك ؟ لقد نسي انه سيكون
صياداً وان التغزل بالاسماك أو رثاءها لن يجديهِ .. لقمة العيش هي المهم .
لا . سيقول أشياء أخرى أفضل حين يكون على البر .. كل ما في الأمر
انه بدأ يحس بدوار البحر ، وربما بسبب رائحة احتراق المازوت ..
(لن أصلح صياداً . أنا شاعر مصاب بدوار البحر . ومصاب بالدوار
حتى على البر) ..

أطفاً والده المحرك البخاري للمركب . سينتظرون ساعة وبعض الساعة
قبل رفع الشباك النهائي ، في انتظار أفول القمر ، الملاك الحارس للاسماك ..

* * *

صمت محرك « الفانوس السحري » .
صمت نهائياً أصوات الكورنيش على طول الشاطئ . بيروت استعالت
إلى بقعة نائية من الأضواء المرشوشة . السماء أصبحت أكثر قرباً من سطح
الزورق ، حيث تمدد مصطفى على ظهره .
في السماء عدد قليل من النجوم ، والقمر يتوسطها .
القمر لا يزال قمرأ بالنسبة إليه ، ساحراً وشفافاً ، يسكب على البحر

لونا أزلياً من الظلال الفضية المسكونة بهمس التاريخ واسرار العصور ..
(لم ينقص حيي للقمر حين عرفت انه ليس كوكباً من الزئبق والفضة والعاج
والعطور وانما مجرد كرة أخرى منطفئة كالأرض ، كلها غبار وصخور
وحصى .. ولماذا ينقص حيي ؟ لن يتبدل حيي لحميدة اذا علمت انها مصابة
بالديدان المعوية ، وان داخل جسدها الجميل - الذي اكتبه كل ليلة شعراً -
تغلي قبيلة من الكائنات البشعة المربعة . الخيال ليس بالضرورة نقيضاً للحقيقة ،
بل انه الوجه الآخر ..) .

احس بما يشبه الدوار يستولي عليه رغم سكون المركب . قال له والده :
« انهض وساعدنا في رمي الشباك . الحركة والعمل يلغيان الحس بالدوار . »
نهض .

سار قليلاً ثم انهار على كوم من الشباك . ترك وجهه يغرق فيها . وكانت
متعة عجيبة ان يشم رائحة حبالها المألحة تحترق رأسه . ويسمع خلالها أصوات
الاف الأمواج التي طالما تلاعبت بهذه الشبكة . ويمتلئ رأسه برائحة رطوبة
لزجة زنخة ، ممزوجة برائحة أعشاب البحر ، وترقص فوق صفحة وجهه كل
الاسماك التي أدت رقصة الموت داخل هذه الشبكة . وعبثاً حاولت التسرب من
شقوقها الضيقة لتعود إلى البحر ، إلى الحرية والحياة .. رغم دواره كان صوت
الامواج ساحراً وآسراً ، وظل مستمتعاً بنسيم الليل المحمل بالإيحاءات ، المثير
لذكريات غامضة شبه منسية كان يعيها في طفولته بشكل أفضل . (أليست
بصيرتنا امام اسرار الوجود عمياء ، لكنها كالرادار تنبه أحياناً لاشارات
كونية مبهمه ؟) وأحس بأن صوت الامواج والريح ، ورائحة الشباك
وطعم فلتينها المملح على شفقيه ، وحكاياها المصبوغة بدم الاصابع المقطوعة
للصيادين ، وآثار عضات الاسماك على الحبال الرفيعة لحظة احتضارها .. هذه
كلها اشارات كونية تروي انشودة الصراع من أجل البقاء ، انشودة حزينة
ازلية مذهلة مليئة بالعنف والحنان والشراسة .

ناداه والده : « انهض واعمل معنا . سيارحك دوارك . شمر عن

ساعديك ! »

ولكن ميوله الشعرية هي التي شمرت عن ساعديها ، وعاودته رغبته في
كتابة قصيدة (ها انا في بحر الاوديسة وسندباد ... بحر القراصنة والاساطير
والاثلنتيد ...

وبقية المدن المسحورة المدفونة في الاعماق ...

وصناديق المرجان والذهب والآلي ،

ذات الاقفال الصدئة ،

المستقرة منذ عصور سحيقة في قاع البحر ...

بحر المراكب العتيقة من أوراق البردي ،

بحر الفينيقيين ،

بحر الدهشة والرغبة في الاكتشاف ،

بحر كولومبوس ، بحر العالم القديم والحديد ،

البحر الحياة والموت ، والمجهول والسر ،

بحر الصراع ، والعاصفة قاصفة الاشرعة بالمطر ،

والمطر شلال القدر على قوارب الرجال الجياع .. البحر العظيم نسيناه

في بيروت) . يحزنه ان البحر صار في خاطر الناس في بيروت لوحة ميتة

مدقوقة إلى نوافذ المقاهي المطلة عليه ، صار امتداداً أزرق لاسفلت الشارع الأسود.

... صار في الاذهان مجرد اعلان عن باخرة سياحية درجة اولى تضم مسبحاً

وباراً ونساء شبه عاريات . صار سمكة مسجاة في القرن . (نسيناه ، اله العالم

القديم هذا ، ومخلوقاتة الجميلة العجيبة ... ولكنه لا يزال هنا كما كان ابداً .

صامتاً منذ الازل . غامض اللغة ، غامض الغضب ، غامض اللعنة والرموز) ..

سأله احدهم : « كم الساعة ؟ » ادهشه ان يسأله عن الساعة . ان يسأل احد

عن أي شيء . (انسا خارج الزمان والمكان . مرمياً فوق شبالك الصيد ،

امتطيها كما لو كانت صاروخاً يطير بي عبر العصور ، عبر المحيط ،

لازداد التقاطاً لشارات اكثر من عصر وجيل ومكان ، واقترباً من الحقيقة المنسية

في اعماقي) .. يعود الصوت يسأل ملحاحاً : « كم الساعة يا مصطفى ؟ »
(هنا لا زمان .. لا عصر .. لا كوكب محدد .. من الممكن ان يكون تاريخ
هذا المشهد قبل التاريخ او بعد الف عام ... هكذا كان البحر والسماء ابدا
وهكذا سيظلان .. الانشودة نفسها .. الزمن ذاته) ..

فجأة ، مزقت ازلية المشهد طائفة اقبلت من بعيد . كانت تقترب بسرعة
وتتخفص ، وتزداد محركاتها صخباً واضواؤها وضوحاً ... وعاد مصطفى
إلى نفسه مرعماً ، يللمم اذيال جلته الكوني ... قال بصوت مقهور : « الساعة
تقارب الواحدة . »

قال احد الرجال : « ما زال الوقت مبكراً على رفع الشباك . »
اخرج صنارة وجلس يجرب حظه بها . خلع رجل آخر ثيابه وقال :
« انني في حاجة إلى غطسة ! » يقول ان الماء دافئ ويسبح حول المركب ،
بالضبط في الناحية التي علق بها « اللوكس » ، حيث تغلي بعض الاسماك
الصغيرة متجمعة حول الضوء .. يتأمل مصطفى والاسماك حوله : (ما
الفرق ؟ انه سمكة اخرى في هذا البحر الازلي الشاسع) . الاسماك
الصغيرة تدور حوله . بوضوح يراها تنزل في المساء برشاقة قرب جسده .
(انه فرد منها ، سمكة أخرى في بحر الوجود) ..

سمع مصطفى ما يشبه الشهقة . لقد اصطادت صنارة الرجل سمكة .
اخرجها من الماء . انتزع الصنارة من فمها وامسك بها . في ضوء « اللوكس »
رأى السمكة تفتح فمها يئأس كأنها تريد ان تقول شيئاً ، كطفل محتضر ،
والرجل يرمي بها إلى صندوق « الغلة » .. سمعها تشهق . مصطفى واثق من
انه سمعها تشهق . غرق في حزن حقيقي كأنه شهد احتضار انسان . لم يبد على
الصيادين المتعبين أنهم سمعوا أو لاحظوا شيئاً . (يا لها من جريمة ! لن اعمل
صياداً . من وجهة نظر البحر والشاعر ، ليس هنالك فرق بين مصرع سمكة
ومصرع انسان . كلاهما روح حية ازهقت ! من اليوم فصاعداً ، سأعجز
عن أكل السمك . وإذا اصررت امي قائلة انها طازجة سأقول لها : تعنين انها

حديثه الاحتضار وأن الجريمة لا تزال حارة ؟ .. واذا دعائي صديقي الغني
إلى المطعم ، وارغموني على قراءة انواع السمك المطبوخة في قائمة الطعام
فسأقرأها كما لو كنت اقرأ جداولاً باسماء الوفيات والقتلى في صفحة
الجرائم !!) ..

فجأة ينفجر اصبع من الديناميت ، وعلى ضوء « اللوكس » يرى مصطفى
عشرات القتلى من الاسماك يللمها مركب اقرب منهم حتى كاد ان يلتصق
بمركبهم . صرخ بهم أبو مصطفى : « الديناميت ممنوع . انه يبب صغار السبك
ونبقى في العام المقبل بلا رزق . »

رد صوت غاضب من المركب الآخر : « ممنوع علينا ، ومسموح به
لسوانا ، لأهل الوساطات » واللي عندهم ظهر يحميمهم ! . نريد ان نأكل .
الاولاد جاعوا ، والشباك اهترأت ، وثمن المازوت ارتفع ... الدنيا تغيرت
يا أبو مصطفى ... »

يرد أبو مصطفى بصوت مكسور : « معك حق . »
تم جمع القتلى بسرعة ورموا إلى مركب « الفانوس السحري » بعدة
اسماك ... كهدية .

(الجريمة في نظر الناس هي فقط قتل كائن من فصيلتنا البشرية . لم تتطور
انسانياً وكونياً بعد لتصبح الجريمة هي أي ازهاق لروح حية ! كم اشتاق إلى
الفلسفات الهندية والآسيوية التي تحرم قتل اي شيء حي ، حتى البعوضة ! ..
وكم يشتاق عصرنا البشري الوحشي إلى انسانية غاندي النباتي الذي يفيض منه
الحب حتى يغسل كل مخلوقات الكون الحية !) ..

اقرب أبو مصطفى من ابنه الواجم الشارد وفي يده سكينه وسمكة ...
كانت السمكة لا تزال تنتفض . مزق احشاءها بضربة واحدة ، وانحنى على
طرف القارب وغسلها بماء البحر جيداً ، ثم وضعها على محرك القارب الذي
كان لا يزال حاراً وقال لمصطفى : « ستشوى بسرعة .. وسأطعمك سمكاً
طازجاً لم تذق مثله في حياتك ! »

· سأله مصطفى بعداوة : « الم يحدث أن شعرت مرة بالحزن لموت سمكة ،
واعدها إلى البحر رحمة بأنينها ؟ » .
رد والده : « ان صوت انينك ، واخوتك العشرة ، حين تجوعون هو
كل ما اسمعه . »

احس مصطفى بالحجل والبؤس معاً (منطق كل ما في العالم من فلسفات
جميلة ينهار امام منطق صراخ طفل جائع) . احس بالأسى لأن شريعة ما
جعلت لعبة القتل شبه ارغامية . اقتل او يقتلوك . القوي يأكل الضعيف .
البقاء للأقوى .

كان والده يتابع تمزيق السمكة وشيئها على المحرك حين ناول مصطفى
سمكة صغيرة استخرجها من احشاء سمكة أكبر منها وهو يقول ببساطة :
« انظر ! .. السمكة التي تحزن على موتها قد ابتلعت قبل دقائق اختها الاصغر
ولم يتسع لها الوقت لهضمها . هذه هي الحياة ! » .

ظل مصطفى واجماً ، ووالده يتأمله بحزن عميق . (هذا الولد لن
يصير صياداً ابداً . انه مفسود « وصايع » .. يريد ان يكون شاعراً ..
انه نصف مجنون ، غارق في الاحلام والأوهام .. ولكن ، هل انسا خير
منه ؟ انا الذي قضيت ثلاثين عاماً من عمري في البحر محاولاً صيد قمقم
الجني وفانوسه ؟ انا صياد الوهم ، صياد الجني القوي المطاع الذي لا ترد
له رغبة ... ان كان مصطفى مجنوناً فقد ورث جنونه عني ، انا صياد
« الفانوس السحري » !) .

وانطلق صوت أحد الرجال وهو يغني موالاً حزيناً من تلك الأغاني
الخاصة بالصيادين ويقول : « السخلة دعت إلى الله ، آكلي لا يشبع
وصيادي لا يغني وبائعي لا يربح . والفلوكة تعبت ... »

والعيون كلها معلقة بانتظار غروب القمر . والقمر صار قرصاً أصفر
وقد انحدر نحو الأفق ، وصار لونه وشكله شبيهاً برغيف خرافي يبحر الجميع
لأجل القاء القبض عليه . وتنهد مصطفى بحرارة عاشق مراهق في البحر .

بينما عاد والده يتأمله بأسى : (لن يصير ابداً صياداً فحلاً كشقيقه
المرحوم علي ... انه لن يقدر ابداً على ملء فراغه .. لقد كنت
مخطئاً حين ارغمته على ترك المدرسة والانضمام إلي .. لقد اتخذت ذلك
القرار على عجل في « التاكسي » الذي اقلني من بيت المراي مصاص
دمي وكدحي وعرفي ... ذلك المراي الحقيق الذي رهننت لديه مركبي
« الفانوس السحري » ومن يومها والفوائد تنبت كالشوك ... ولكن مصطفى
لن يساعدني كما خيل الي .. لم يخلق للبحر .. علي خلق للبحر مثلي ، وكان
اقوى جسداً من مصطفى رغم انه يصغره بثلاثة أعوام ... لم تفسده الكتب ولا
فك الحرف ... ولكن سمكة قتلتها . ما زلت حتى اليوم لا اصدق كيف قتلتها
سمكة ! . استعيد الأمر وأكاد أجن .. كنا نصطاد أول هذا الصيف يوم
جرب حظه للمرة الأولى مع أصبح ديناميت .. كان « الضرب » موفقاً وخرجت
له عشرات من الاسماك طفت على وجه الماء .. قفز إلى الماء فرحاً وبدأ يرمي
بالأسماك إلى القارب ، ولكثرة ما استبد به الفرح حمل في كل يد سمكة
كبيرة ، وقبض باسنانه على سمكة ثالثة وسبح بها نحو القارب . السمكة في فمه
لم تكن قد ماتت بعد . كانت تتخبط . انزلت إلى حلقه .. واختنق ..
اختنق فعلاً ... مات . بكل بساطة اصطادته سمكة بدلاً من ان يصطادها .
حملناه جثة ، وعدنا به إلى امه ... حاولت ان اقول لها ان ابنا مات ولكنها
لم تفهم .. كانت في حالة غناض تضع طفلنا الأخير ، والعرق يبلل وجهها ذا
العضلات المتقلصة بأقصى الألم والعمل ، وكانت تصرخ بقوة ليخرج طفلها
إلى الحياة حياً ، وجسدها كله ينتفض ، وكنت اصرخ في وجهها : علي مات
يا أم مصطفى ! .. لم يبد عليها انها قادرة على فهم عبارة « مات » في تلك
اللحظة . وصرخ طفلنا الحديد صرخته الاولى وقد حملته الداية وحبل الخلاص
ما زال يقطر دماً ، وقالت ام مصطفى بهدوء التعب المجيد : فلنسمه علي !) ..
القمر صار قرصاً محمراً دامياً . رغيماً ملطخاً بالدم . الرجال يشدون
الشباك من الماء . زنودهم المفتولة تلتهم في ضوء « اللوكس » وتزداد انتفاخاً

وصلاية ، تلتهم بالعرق الذي بدأ ينزف منها ، تصبح كمعاول بشرية تحفر حتى قلب البحر بحثاً عن القوت ... ينشدون اثناء اخراج الشباك اغنيات هي اقرب إلى صراخ التشجيع المنغم منه إلى التطريب . لاحظ مصطفى ان غناءهم يساعدهم أيضاً على تنظيم تواتر حركاتهم بحيث يتحرك عشرون ساعداً في لحظة واحدة .. عبثاً يخلع مصطفى عن نفسه دواره ، عبثاً ينهض ليشترك الرجال اغانيهم وعملهم المضني ، وهو المكوم على طرف المركب كاللثة بينما دماغه يعمل داخل صندوق جمجمته ! رغم الدوار ، الاسماك تقفز داخل الشباك وتضطرب . (كل يتحرك على طريقته مكافحاً من أجل بقائه) .. يخرجون بالشباك ، وتضيء وجوههم المغسولة بالعرق وماء البحر ، المكدودة اعياء وتعباً ، وأصابعهم الممزقة النازقة على حد الحبال ... دقائق وتكف كومة جثث الاسماك على خشب القارب عن الحركة . ولم يعد مصطفى حزيناً لأجلها وحدها ... (لعبة الحياة ككل هي التي تعذبني . الصيد السمكة . الموت هو وحده الصيد الذي لا يرحم والذي يتساوى في شبكته القاتل والقتيل) ...

حين عاد مصطفى تلك الليلة إلى فراشه تحجرت يده واغمي عليه ارهاقاً .

وحينما استيقظ جائعاً لم يجد في البيت ما يأكله غير سمكة . اكلها ، ولم يكتب قصيدة ! ..

* * *

على بعد يسير من قارب أبو مصطفى السماك وبقية قوارب الصيادين المتحركة. كانت هنالك نقطة مضيئة ساكنة في البحر... لم تكن مصباحاً لزورق صياد ضل طريقه ، وإنما كانت النور القوي الكشاف ليخت نمر السكيني ، ابن فارس السكيني ، التاجر الكبير ومحتكر بيع السمك وأشياء أخرى كثيرة ... يasmine لم تنم تلك الليلة ... كانت لا تزال ترشف الويسكي وتدور في أرجاء اليخت عارية تماماً ... يحلو لها ان تخلع ثيابها كلها وتتحرك في الشقة وفي اليخت عارية تماماً . ان ذلك يملأها بأحاساس عذب بالحرية . في البداية كان نمر معجباً بعادتها تلك ، وكان يتأمل جسدها الأبيض الشديد الامتلاء وهو يتحرك بين الوسائد المخملية والرياش ، وينحني لوضع الاسطوانات في « البيك - أب » ثم يحملها فوراً إلى الفراش ، وأحياناً ينهار واياها على الطريق اليه فوق « الموكيت » الثرية بريشها ... تتذكر ذلك كله بحسرة حين تسمع صوتاً يقول لها بحنان مفتعل بارد : « ارتدي ثيابك . الطقس بارد في الليل وقد بدأ الخريف . »

للمرة الاولى تشعر بانها عارية ، فعيناه ترفضان عريها . تلف حول جسدها « كيمونو » حريراً وتخرج إلى سطح اليخت تتأمل زوارق الصيادين المضيئة . وتنفجر في بكاء خافت ...

منذ أيام وهي تحس بحاجة إلى البكاء وتتجلد . شيء ما قد انكسر بينها وبين نمر . شيء من البرود صار يلف علاقتهما . خيط من الموت تسلك إلى

كل ما يدور بينهما . خيط من الصدا نبت على الشفاه والجسد ، وصارت تحس لقبلاته طعم الصدا في فمها ... ماذا حدث ؟ لا تدري . انها لا تزال تلهب تعلقاً به ، لكنها تعرف بجذس الأنثى الذي لا يخطيء ان شيئاً ما قد انتهى ... انها لا تستطيع مناقشته لانه لم يبدل أسلوبه العام في معاملتها . ما زال يغدق عليها النقود ، وما زال يغدق عليها جسده في الفراش ، ويغدق عليها وقته وحضوره ... وهي لا تستطيع مناقشته في التفاصيل الصغيرة ، كسؤاله عن سر الهاتف الصباحي الخامس والموعد الذي ضربه لشخص ما في التاسعة من مساء اليوم التالي — فالمفروض انها كانت في الحمام لا خلف الباب تسترق السمع — او سؤاله عما عنته تلك المرأة المتصايبة في المطعم عندما قالت له : « مبروك » ثم رمقتها بنظرة ساخرة وحدها المرأة تعرف كيف تفسرها ! .. وحتى إذا صارحته بمخاوفها وشكوكها او قالت له : « احس بانك لم تعد تحبني كما من قبل » فسيرد عليها : « شكك في حبي هو دليل خضوت الحب في قلبك . الشك دليل عدم الثقة ، وعدم الثقة دليل عدم الحب . الذين لا يفكرون في الخيانة لا يشكون بخيانة الحبيب . » هكذا قال لها البارحة ، ونقلها من منصة المدعي العام إلى قفص الاتهام ! .. جواب جميل لكنه غير مقنع . كلمات . كلمات . لقد اقسم لها على اخلاصه ولم تجرؤ على ان تقول له ان كلماته لم تصب في قلبها .. وان للمرأة العاشقة حاسة غريبة مرعبة تشم وجود المرأة الأخرى .

(ما زلت احبه . احب ما يستطيع ان يفعله بي جسده العاري . احس بالامتنان نحوه بعد ان حولني من سهل من الجليل إلى حقول من الالغام ... كلما تشاجرنا لا املك الا ان استرضيه . اصبحت مدمنة ، وجسده افيني . يحلو له ان يكسوني بالثياب الثمينة . ان يخرج معي إلى المطاعم الفخمة كي يرانا اصدقائه . اعرف انه يحب استعراضى امامهم في « الكاف دي روا » وفي « الباناش » و « تامبوريل » وبقية مقاصف بيروت الفخمة ، ويجب اذلالى امامهم تدليلاً على سحره الرجولي ... اعرف انه يهمني احياناً ريشما يغزو

اخرى يستعرضها امامهم ولو لليلة واحدة ، ثم يعود إلي . دوماً يعود إلي لأن احداً لا يحبه كما احبه ، ولانه ليس في العالم امرأة تمتص رحيقه بالشهية التي امتصها انا ... انا بالنسبة اليه غزوة .. وهو بالنسبة الي فاتحة عمري كله... حين تحدث ذات يوم عن خطبته إلى نائلة السلموني ، ابنة غريم والده السياسي فاضل السلموني ، ظننته يمزح ... اعتبرتها نكتة مسلية ان يتم الزواج في هذه المدينة العجيبة انطلاقاً من الصفقات العشائرية والمصالح السياسية ، وان يخطط له بين شخصين لم يلتقيا من قبل ... وبين ذراعي العريس امرأة تذوب به حباً ، وربما كان يحبها هو أيضاً دون ان يلحظ ذلك ! ما زلت احبه . وحيي العظيم بجسده منغني دوماً من مجرد رؤيته بوضوح . الا ليلة البارحة . يخيل الي البارحة انني شاهدت وجهه الحقيقي لثانية ...

بدأنا يومنا في جونه .. صعدنا بـ « التلفريك » إلى حريصا ، وتمنيت لو ندخل إلى الكنيسة في قمة الجبل لتتزوج فجأة ... لكننا تابعنا رحلتنا إلى الفراش دونما زواج ، كالعادة ...

قبل منتصف الليل بقليل قال انني استنزفه وانه متعب وسئم ... اما انا فقد كنت أشد جوعاً إلى جسده من أي وقت مضى .. قلت له ذلك فنصحني بالتفتيش عن رجل آخر . ظننته يمزح . قلت له : احبك ، ولذا استمتع معك . لا يستطيع اي رجل آخر ان يمنحني هذه المتعة .

صرخ بي : جسدي مسكون بالشياطين .. اي رجل سيمتلك . اذهبي وجربي .. انني اشك اصلاً في انك كنت عذراء حين بدأنا معاً ... لقد مارست علي لعبة ما ..

وبدأت ابكي فاسكتني بقبلة ، ثم ذهبنا إلى « الكازينو » ليلعب القمار قليلاً كما يفعل دوماً حين تأتية نوبة غيظ ما — ام تراه افتعل الشجار وكان موعد الكازينو مديراً ؟ — وهناك تقدم منا « بيك » هام سلم عليه وعرفه إلى ابنته ، وهي فتاة عادية الوجه ، ترتدي مجوهرات غير عادية . وحين سمعت اسمها — الأنسة نائلة السلموني ، كريمة فاضل بك السلموني النائب — تحجرت .

انها هي .. ابنة خصمه السياسي والخطيبة المرشحة ... لفت نظري انه قدمني اليها باسم مستعار . لم يقل لها اسمي : ياسمينة بل قال لها : مدموزيل ابراهيم ، زميلة جامعية سابقة ! وفهمت لماذا كان راغباً في الذهاب إلى « الكازينو » من دوني .

تراه حقاً سينزع جسده المزروع في جسدي ، ويعضي بعيداً ؟ ..
لقد قطعت كل الجسور . لم أعد أعمل . صحيح انه ينفق علي بكرم ، وانا انفق على شقيقي الذي يغمض عينيه عما يدور اكراماً لنقودي .. ولكن .. هو .. جسده ... لقد الفتته .. ادمنته .. اني مريضة به .. طيلة سبعة وعشرين عاماً وأنا ممنوعة عن ممارسة تلك المتعة المذهلة ، وها أنا اليوم مريضة منحرفة ، وقد كرس نفسي للفراش وفي دمي شهوات النساء العرييات المسجونات على طول أكثر من الف عام ... ولم يعد في وسعي ان امارس الجنس كجزء من وجودي ... لقد هزمت امامه ، وصار هو وجودي كله . وفي الليالي القليلة التي اقضيها في بيت اخي بعيداً عن جسده الأشقر ارتجف كمدمن محروم ، وافقد كل قدرة على التعقل . انني ارى جنوني وارى خطأي وارى بوضوح كيف اخرج من منزلي ، لكنني عاجزة عن ذلك ... لقد نسوا حين حبسوني في قمقم التقاليد انهم بذلك يجرّدوني من مقاومتي ...

وها انا استسلم لنهر النار الذي يجرفني ، نهر الآهات الكاوية ... وها انا اخيفه بشهوتي اليه ، فهو لن يفهم اني لست مومساً ، ولكن جوعي لجسد عمره أكثر من الف عام ! اشم رائحة الخريف في الجو ... الريح بدأت تعصف باردة ... ترى انتهى صيفي إلى الأبد ؟ !)

ظلت طويلاً واقفة على سطح اليخت دون ان يلحق بها ... خلعت رداءها ووقفت تبكي في الليل عارية ووحيدة .. للمرة الأولى حسدت سلحفاتها المكومة داخل صدفتها ... (لماذا لا صدفة لي احتتمي بها كسلحفاة ؟ اني وحيدة وهشة وعارية تماماً لضربات نمر ما دمت ادمته هكذا .) ...
خلف شريط اضواء قوارب الصيادين تبدو بيروت في البعد خافتة النور

ومرتجفة مثل جمرة نصف منطفئة ... وانحنت ياسمينة على طرف اليخت ،
وقرأت اسمها المكتوب عليه في الظلام : « ياسمينة » ...
(غداً يغير الطلاء . سيأتي عامل ويمسح عنه اسمي ، ويكتب فوقه اسم
اخرى ... ربما سيكتب اسم نائلة) .. ولكنها لا تستطيع ان تصدق حقاً ان
ذلك يمكن ان يحدث .. انها مثل زوجته .. تحبه .. تخلص له .. تعاشره .. تمتعه ..
تمنحه كل شيء .. لا تريد من الدنيا سواه . كانت عذراء يوم امتلكها ولم
تعرف رجلاً سواه .. لماذا لا يتزوجها هي ؟ .. لماذا لا تسأله غداً ؟

في التاسعة من مساء اليوم التالي كان نمر السكيني يرافق والده إلى بيت
فاضل السلموني في زيارة عائلية للتعارف ... ولخطبة كريمة الآنسة نائلة التي
شاهدها مرة واحدة في رفقة والدها في « الكازينو » ... ولكن مصالح والده
الانتخابية تفيد الكثير من هذه المصاهرة مع اسرة خصمه السياسي التقليدي .
في التاسعة من مساء اليوم التالي كانت ياسمينة تدور في شقة نمر الفاخرة
وهي تتساءل بحزن : ترى اين هو الآن ؟ وعلى من ينثر حضوره العذب ؟
ولن تضيء عيناه ؟ .. وكانت سلحفاتها تمشي منكسرة الرأس أكثر من
عادتها ، بل واشد بطئاً كأنما اثقل كاهلها الحزن .. وقفت ياسمينة امام المرأة
وغمّ غامض يستولي على نفسها .. تذكرت انها لم تضحك مرة واحدة منذ
أكثر من اسبوع . حاولت ان تتذكر كيف كانت تضحك قبل ان تعرفه
وفشلت . وقفت امام المرأة لتجرب ذلك فهاها ان الدمع يغطي وجهها ..
وانها نسيت كيف كانت تضحك فانفجرت تبكي .. وقررت ان تلجأ إلى
أوراقها وتكتب قصيدة كما كانت تفعل دائماً حين تحزن ، لكنها عجزت
ونسيت رغبتها في مقابلة النقاد والصحافيين وأصحاب دور النشر ... نسيت
كل شيء ... صار نمر كرتها الارضية ، وها هو ينسحب من تحتها ويخلفها
للسقوط وحيدة في الفراغ ...
تطلعت إلى السلحفاة لتستأنس بها .. وجدتها وقد انسحبت إلى داخل
صدفتها ..

كل العالم ينحسر عنها ويخلفها وحيدة مثل صدفة فارغة على شاطئ منسي
في بيروت ! ..

نیشان ! ..

انه لا يستطيع ان يصدق انه استطاع اخيراً ان يمثل بين يدي نیشان .
صحيح ان نیشان لم يحتضنه كما كان يتخيل ان اللقاء سيكون ، ولم يضمه إلى صدره ريبك ويسأله عن حال أبيه وحال أهالي قرية دوما فرداً فرداً ، لكنه على أي حال صافحه وطلب منه الجلوس ريثما يفرغ من حديث هاتفي ، وها قد انقضت ساعتان ونصف وهو ينتظر ، ونیشان من هاتف إلى آخر . سكرتيرات يدخلن ويخرجن . رجال يحملون « السيكار » الثخين ، وآخرون مثله على وجوههم الارتباك والحاجة ..

كان نیشان قد استشاط غيظاً وهو يتحدث على الهاتف ، وبدأ أبشع من صورته وأكبر سناً . ليس ذلك فقط ، بل ومختلف التعبير : أشد قسوة وفظاظة . لكن فخامة المكان جعلته يشعر بالضآلة ... كانت ارض المكتب مكسوة بما يشبه المخمل ، وكذلك الجدران ، وبدأ المكان مثل علبة مخملية ، والمنضدة التي يجلس خلفها نیشان من الزجاج الشفاف تتدلى عليها مختلف المصاييح ، وخلفه لوحة من ازرار تفتح وتغلق الأبواب والدواليب ... احس بأنه يطأ عالماً جميلاً وشرساً .. احس كأنه سقط بين فكي زهرة من آكلات البشر ، اسنانها من المعدن اللامع ... ولكنه استسلم لمقعده .. كان متعباً متعباً كأنما غسلت بيروت دماغه ، وعذبت طيلة شهر بالغبرة والوحشة والحرمات ، وجعلته يتقزم داخل نفسه ضئيلاً ومهملاً مثل صرصار نصف مداس ! .: سمع في

داخله صوتاً يحرضه على الهرب والعودة إلى قريته وكتبه وخزائنه الفارغة المقفلة :
لكن خيل إليه ان قفلها مخلوع والريح تعصف بدفتيها وتتسرب إلى داخلها
بشراسة واستخفاف ..

(لقد نسيني على مقعدي في الغرفة . نسيني تماماً . لا فرق بيني وبين
نبته المطاط التي تزين المكان ، أو اصيص الازهار أو ممسحة الخداء قرب الباب) .
تحول حديث نيشان على الهاتف إلى صراخ غاضب . لم يكن فرح يريد
أن ينصت ، لكن الصوت الغاضب اقتحمه ... كان نيشان يرتجف وهو
يصرخ : « انا الذي صنعتك وانا الذي يستطيع تدميرك ... هل صدقت انك
صرت نجماً ؟ .. استطيع استبدالك في أية لحظة بوجه جديد . في كل لحظة
يوجد في مكثي من يحتل مكانك . وابنتي أيضاً ستفك الخطبة .. نعم امتلكها
وأمتلكك . لا تصدق نقاد الصحف الذين ادعواهم إلى العشاء فيديجون المقالات
عن موهبتك . انا اعرف وانت تعرف انك لست موهوباً .. أما انا فموهوب
في عملي ، ولذا سأكون انا الذي يدمرك ... وسترى ! »

أغلق سماعة الهاتف والتفت إلى فرح محدقاً وكأنه يراه للمرة الأولى .
احس فرح بأن ثيابه رثة وشعر بأصبعه يتوتر داخل حذائه حيث الجورب
مثقوب ...

تأمل نيشان فرح طويلاً ثم قال له بصوت حاسم كالقدر : « إذا تريد
الشهرة والمال ... يقول والدك في رسالته ان صوتك جميل ! .. »

... -

— هل تعرف الثمن ، ثمن الشهرة ؟

... -

— هل انت على استعداد لدفعه ؟ الطاعة أولاً ... الطاعة المطلقة لي ...
كان في صوت نيشان شيء شرس وصارم مثل فرقة السياط في « السيرك »
على اجساد الحيوانات اثناء التدريب ... ولا يدري لماذا تذكر فرح حكاية
ذلك الرجل الذي وقع مع الشيطان عقداً بدمه بمنح فيه نفسه للشيطان مقابل

تلبية رغباته كلها ... ماذا كان أسم بطل القصة ؟ لم يعد يذكر ! .. ربما كان اسمه فرح ... ام تراه فاوست ؟ ..

* * *

عاد فرح إلى « فندق العسل » ليلملم حاجياته القليلة وثيابه الرثة استعداداً للانتقال إلى الفندق الذي حجز له نيشان غرفة فيه ... تأمل أشياءه الفقيرة القليلة وجمعها داخل الحقيبة ، ثم ترك الحقيبة وخرج من دونها ... عند باب الفندق كان بائع السمك الملون يقتحمه ببضاعته العجيبة ... كعادته ، وقف فرح مسحوراً يتأمل الاسماك الملونة وهي تسبح داخل اكياس النايلون الشفافة وتنطح جدرانها برأسها دون جدوى ... وفجأة تمزق كيس منها ، وسقط الماء على الرصيف ، والاسماك أيضاً ... انتفضت الأسماك على الرصيف في الهواء ، قفزت قليلاً مكافحة من أجل الحياة وكانت تنزلق من بين أصابع البائع الذي يحاول عبثاً الإمساك بها وايداعها كيساً آخر ... وامتلأ قلب فرح غماً وبكى بصمت وبلا دموع .

خرج فاضل بك السلموني من باب قصره في حي اليرزة الارستقراطي في بيروت ، فسرت في الحديقة حركة غير عادية ... ركض السائق وجاء بـ « الكاديلاك » فوراً من الكاراج ، وتحلق حول البيك بعض ذوي الحاجات . والتصق به مرافقوه يكشفون عنه الناس الذين انتخبوه ذات يوم نائباً في البرلمان ... أبعدوهم جميعاً الا رجلاً عجوزاً ضئيل الجسد ، كان يصيح بصوت عال جداً لا يتفق وضالّة جسمه : « قلت لك ان الاسرائيليين أحرقوا محصولي ونسفوا بيتي . تعال وأسكن معنا في أراضيك وأنظر ماذا يحدث ! » وكان صوته عالياً كأنه مجرد حنجرة كبيرة . كأن جسده وكيانه قد استحالا إلى حنجرة ..

رد البيك بصوت هادىء كالقضاء : لا يرد : « نصحتك مراراً أنت وأهل القرية بعدم ايواء المخربين ولم ترتدعوا ... تسمونهم « فدائيين » وهم سبب خراب القرية ! » وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . «

صرخ العجوز : « وتستشهد أيضاً بآيات الله ؟ .. يا ويلك من ! .. » ولم يكمل الجملة فقد نزلت على وجهه لطمّة أخرسته ربما لوقت طويل ... وربما لانفجار قريب !

قال البيك النائب فاضل السلموني لسائقه : « لن أذهب الآن بـ « الكاديلاك » هات السيارة الصغيرة ! »

وابتسم السائق متذاكياً . فالبليك ذاهب اذن إلى شقته السرية . وجاء بـ « فيات » صغيرة صعد فيها البليك وأشار لحراسه بعدم مرافقته ، فأخرج أحدهم من جيبه مسدساً صغيراً أعطاه إياه حرصاً على حياته الغالية ... انطلقت به السيارة في الطريق إلى الرملة البيضاء . كان البليك شاردأ ، ثم تنبه وقال لسائقه : « لا ، لسنا ذاهبين الآن إلى هناك . خذني إلى بيت فايزة . » « هناك » - فكر البليك - توجد شقته الجميلة الصغيرة ، وهي الآن تضم فراشة جديدة صغيرة . سائحة شقراء منهن ، فهو يفضل الاجنبيات . مع الاجنبيات الصنفقة أشد وضوحاً والتخلص بالتالي أكثر سهولة وبلا ذيول ... صحيح أن صديقاته العربيات أكثر حرارة و إخلاصاً ، لكنهن غيبات يعشقن فعلاً الرجل الذي يعاشرنه ويتحولن بمرور الزمن من متعة إلى مشكلة ، ولا وقت لديه للمشاكل ... الأجنبية تفهم الحياة أكثر ... خدمات مقابل خدمات . ثم أنهم لا يصدمن حين يطلعن على حاجاته وميوله بالتفصيل بينما العربية تعتبر ذلك شذوذاً .

توقفت السيارة أمام بيت البصارة فايزة . هبط السائق بسرعة يعلمها بوصول البليك ، وخلال دقيقتين كان البليك في الغرفة الصغيرة التي لا نوافذ فيها وأثاث قليل جداً كأن الأرواح والجان لا تحب الأثاث . أو لتترك البصارة متسحاً لها حين تقبل قوافلها ويصير الجو مشحوناً بالحمى والتوتر والارتعاش .

— خير يا بليك ؟

— جئت أسألك في قضية هامة .

— اضمر .

— ضممت .

تأملته بعينين ثابتتين فخفض نظره احتراماً لقواها الخفية ولحضور كائناتها السرية ، وركز نظراته القلقة على مسند المقعد نصف المهترئ . ودس يده في أحد الثقوب وبدأ يوسعه بحركة عصبية ... أمسكت هي بقلم ورسمت على الورقة خطوطاً وكلمات ، وهي الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب . وقال هو :

« تماماً . نائلة ، ابني ... » وتابعت رسم الخطوط فقال : « ... ونمر السكيني ؟ ما رأيك ؟ هل يتم الزواج ؟ »
أغمضت عينيها وارتحف جسدها ، والروح « العليمة » التي تقمصتها ركضت بيدها على الورق وجعلتها تكتب بلغات الآدمية ، وعادت تستولي عليها فصارت تنتفض بشدة ، وخرج من حنجرتها صوت غير آدمي ، كصوت رجل محشور داخل كفن وقالت : « أرى حزناً كثيراً ... أرى دماً ... كثيراً من الدم ! .. »

ثم صارت تشهق وترتحف كأنها تشهد أمام عينيها مذبحة قادمة من المستقبل ...

بعد دقائق من الهدوء فتحت عينيها ، وكانتا هادئتين تماماً كأنها لم تكن تبكي أو ترتعد ، وانما هو شخص آخر سكنها لبرهة ورحل ...
قال البيك بما يشبه التوسل : « هناك أمر آخر أود أن استشيرك فيه ، هل سيتم ؟ »

قالت : « أضر ! .. »

وأغمضت عينيها وتركت حضوراً غامضاً ييث كهاربه : وتركت القلم يركض في يدها ويكتب « نعم » .
وفرك البيك يديه ، ثم أخرج أوراقاً نقدية كبيرة أعطاها إياها ، وانحنى بكل احترام فقبل يدها وخرج مسرعاً ...
حين مضى ضحكت فائزة بصوت عال وهي تحصي الغلة الهائلة ...

انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ...

وحين قصف الرعد كانت ياسمينه وحيدة ... وبدأ العالم متحدياً
وشرساً ، وأحست بأنها ضئيلة على بلاط الليل الشاسع ومنسية مثل نملة
نصف مسحوقه ... قفز اسمه فوراً إلى حلقها . نمر . نمر . (من
كان يصدق أن الحب يولد في هذه المدينة مجهضاً ؟ .. من كان يصدق
أن أصابعه التي كانت تشتعل للمسي صارت كأصابع اليد الكاتبة ، حيادية
ومنضبطة ؟) .

وهي ليست بالمرأة التي تستسلم . ولكن ما جدوى أن تطرد المرأة الأخرى
من حياته إذا كان هو لم يعد أصلاً يباي ؟ ! . (لماذا لا أتقبل ؟ أعود إلى
دمشق . أعود إلى التدريس قبل أن تلقي الشرطة القبض علي بتهمة ممارسة
الدعارة أو المساكنة غير المشروعة ؟) صارت تقرأ صفحات الجرائم
بنحوف . وحين ترى عنوان « مداهمة شقة » أو عنواناً مشابهاً تقرأ الخبر
وقلبها يرتجف مخافة أن يكون اسمها وارداً ...

عاد الرعد يقصف . عاد اسمه إلى حلقها . نمر . (ترى أين هو الآن ؟
ومع من ؟ وعلى من ينثر حضوره الأشقر الجميل المضيء ؟) تعرف أنها لن
تعود إلى دمشق أبداً .. لا نقطة في مياه النهر قادرة على العودة إلى منبعها ...
لقد كان ما كان وانتهى الامر ، وأبحرت في نهر اللاعودة والدم ...
رفعت صوت التلفزيون علته يغطي صوت المطر والريح ، وقررت أن تركز

انتباهها على شاشته، وعلى الوجه الذي يحتل الشاشة ويغني ... هذا الشاب الذي يغني بصوت رجولي حزين تعرفه. لقد شاهدت هذا الوجه من قبل. شاهدته . ولكن أين ؟ أين أين أين ؟ آه ! لم تعد تذكر . لقد شاهدته . ، وهي واثقة من ذلك . أين ؟ .. لا جدوى ! (لقد فقدت كل شيء حتى ذاكرتي !) يعلن المذيع عن اسم « مطرب الرجولة » فرح . فرح ... كأنها سمعت هذا الاسم من قبل ... هذا موعد عودة نمر الليلية . الساعة تقارب الحادية عشرة . ينبض قلبها كطائر أضيبي بطلقة للتو . ترى أين يذهب ؟ ان حكاية الاجتماعات الليلية في شركتهم لم تقنعها ، خصوصاً وأنه لم يسمح لها بالاتصال الهاتفي به ، بحجة انه « سيقطع الخط » ليتفرغ للعمل . فقط لو سمح لها بحرية استعمال التلفون لما استعملته ، ولكنها كانت ستشعر بأنه حقاً هناك ... انها تقضي ساعات اختفائه الثلاث في عذاب حقيقي . تراه يزور نائلة ابنة فاذل السلموني في بيتها كأبي خطيب « جنتلمان » يقضي كل مساء في بيت العروس ؟ لكنه نفى شائعة خطبته . تراه يكذب ؟ .. السلحفاة صامته لا تحدّثها ... تتأملها بعينين فارغتين لا مباليتين .. ولكنها هي تحدث السلحفاة ، فقد شهدت أعراسها مع نمر وتفتح جسدها في ضوء الشمس كوردة استوائية ...

تدور ياسمينه بين أثاث شقة نمر ... تتحسس المقاعد المخملية ، الهاتف الملون ، الجدران المغطاة بالورق الجميل ، مقابض الابواب المذهبة ، زجاجات العطر على التواليت ، ثيابها الجديدة والفرو ... الفرو الثمين الشاسع الذي تحب أن تمدده على الارض وتتقلب فوقه عارية ، وتحس أنها تركض في غابة شاسعة مزروعة بالأشجار الذهبية والرجال الابنوسيين ذوي العضلات المفتولة ، يحملونها فوق رؤوسهم ويرمي بها كل واحد للآخر ، فتستقر أخيراً بين ذراعي نمر وجسده المذهل التكوين والجمال . (ما أبدع جسد الرجل ! لماذا لا تلحظ النساء ذلك ؟ لماذا يصدقن أسطورة ان المرأة ، كحيوان ، أجمل من الرجل ؟ لماذا لا ينظرون حقاً ولو لمرة إلى جمال جسد الرجل وروعة تكوينه ؟ انه اجمل حيوانات الغابة وأعظمها !) . نمر ... جسد نمر ... انها

ترداد شهية اليه. تمتصه كمنحلة تريد قتل ذكرها ... تفتسه كل ليلة كمخلوقات الطبيعة التي تلتهم ذكرها أثناء مضاجعته ، فهي تحبه ، ولا تحس بأنها تمتلكه حقاً الا في الفراش... لا تحس بالأمان ، وبأنه يتحد بها حقاً ، الا حينما يخطو داخل جسدها فتغلق عليه أبوابها كقلعة وتحتويه . وتتمنى ألا يغادرها أبداً ... لقد اعترف لها بأنه لم يستمتع مع امرأة كما معها ... وبأنه مؤمن بحبها له . فلماذا لا يتزوجها ويتركها تسبح في ملكوت جسده وثرائه وعطوره ؟ .. تأخذ زجاجة العطر وتعد نفسها لاستقباله ... لقد فرغت زجاجة العطر ...

تكاد ترمي بها إلى سلة المهملات ، لكنها تمسك عن ذلك في اللحظة الاخيرة. هذه الزجاجة الفارغة كانت ذات يوم ممتلئة تحتوي أيامها معه ... تشاءم من رميها وتقرر الاحتفاظ بها . (كم صرت سخيفة ! أجمع التذكارات والصور وبقايا زجاجات العطر ، وكل أوثران الحب الممكنة .. آه كم تشوهت !) ...

تأخر نمر .. أولئك الرجال لا يعرفون كم تنعذب المرأة التي تنتظر حبياً تشك أين هو ! كل لحظة تصير مسيرة عذاب في حقل مزروع بالغام التخيلات ولا شيء أكثر نشاطاً من مخيلة امرأة تشعر بالغيرة ... التفتت إلى سلحفاتها وقالت لها : « حين يأتي لن أسأله أين كان . ولن أعاتب ولن أقول شيئاً ... سأتابع خطة الانتظار والصمت ... انتظار سقوط المقصلة فوق رقبتني ... أحس أنها هناك وانها ستسقط لكنني لا أستطيع مناقشته في ذلك ما دام ينكر باستمرار. كل ما أملكه هو أن أنتظر اعدامي كي أسأله بعد ذلك لماذا ؟ ! . »

السلحفاة صامتة . صامتة ... لا تملك أي جواب ... لا صوت لها ... انها من كائنات الطبيعة النادرة المسلحة بالصمت . لو ابتاعت قطعة ترافقها لاحست ببعض اللفة في موائها . لو كان الحيران هنا ودين لكانت لها صديقة تبشها أحزانها .. لكن شقة نمر في بناء فخم والناس فيها عدوانيون ومفترسون.. ولو امتلكت كلباً لحاورها قليلاً بعوائه ... ولكن القدر رمى اليها بسلحفاة تهرب من أسئلتها إلى داخل صدفتها ولا تملك لها أي جواب ...

لا أجوبة ... لا أجوبة ... ثم انها تعرف كل الأجوبة الممكنة .. كل ما عليها أن تفعله هو أن تهرب فوراً . تهرب إلى دمشق . إلى عملها . أو تبقى في بيروت وتنضم إلى قومها من الكادحين . نمر يمتصها وسيصقها قريباً وهي تعرف ذلك جيداً في أعماقها . فلتهرب الآن . الآن . فوراً .

في اللحظة نفسها التي وعت فيها موقعها . فتح الباب ودخل نمر وعاد الرعد يقصف ، فأحست بأنها وحيدة وضئيلة أمام قوى جبارة لا تملك لها دفعا .. وركضت إلى صدره تبكي .. وسألها : « ما بك ؟ » ظلت صامتة .

— كل ليلة تستقبليني بالدموع والصمت . لم تعودي سعيدة . لم تعودي ياسمينة التي عرفتني ...

قررت أن لا تصارحه بشكوكها . قالت « لا شيء » . لقد أفسدتني بيروت ... »

— لم تفسدك بيروت . كلكن تتهمن بيروت . بذور الفساد هي في أعماقك ، وكل ما فعلته بيروت هو انها احتضنتها وكشفتها ... منحتها مناخاً لتنمو ... — ولكنني لست مومساً .. اني أحبك .. وفي بداية علاقتنا كنت تلمح لي عن الزواج ...

— الزواج ؟ ! . أيتها المجنونة ... هل تصدقين انني أستطيع أن أتزوج من امرأة أسلمتني نفسها قبل الزواج ؟ .

— لماذا لا ؟ .. ألم تقل لي مباحياً إنك نصحت والدك بادراج قضية مساواة المرأة بالرجل وتحررها في بيانه الانتخابي حين يرشح نفسه للنيابة ؟ ..

لم يرد ، وانما صار يردد بدهول : « أنا أتزوج امرأة ضاجعتها قبل ليلة العرس ؟ أسلمتني نفسها قبل الزواج ؟ »

— لماذا لا ؟ أم انك تفضل أن تفعل كصديقكم نيشان الذي تتندرون عليه باستمرار لان برود زوجته الفاضلة ، كريمة المليونير المغترب ، جعله يعلن عن تفضيله معاشرة الصبيان ؟ .

— أيتها الوقحة ... اخبرني !

بدا غاضباً ومهتاجاً ، وأمسك بزجاجة العطر الفارغة وتلهى بها قليلاً
بصمت : ثم رمى بها إلى سلة المهملات وغادر الغرفة غاضباً .
بعد خروجه ، انحنى على السلة وأخرجت منها زجاجة العطر الفارغة
وضمتها إلى صدرها وهي تبكي... وكان الرعد قد عاد يقصف بشراسة مهدداً ،
والمطر يقرع النوافذ كأنه مبعوث اليها ليحملها إلى اصقاع من البرد والغربة
والتشرد ... بكّت طويلاً ثم خلعت ثيابها واندست إلى جانب نمر النائم ...
(كيف يستطيع أن ينام بسلام هكذا ؟ .. كيف يغرسون حربتهم في قلب
المرأة العاشقة ثم يفرقون في النوم دون أن يتفتتوا ويتناثروا أو حتى يتصدعوا
مثلنا نحن النساء ؟ !) .

وحين أحس بها ضمها اليه . وشعرت بجسدها يعلن العصيان على عقلها :
وبأنه مثل جمهورية مستقلة لا يملك الا الاتحاد به ... وكان جسدها يحبه ...
يحبه ... يحبه . وكان المطر يقرع النوافذ مهدداً . وتمسكت بصدر نمر ، كانت
تفرق . يحرفها المطر بعيداً ... وكان نمر قد بدأ يشخر .

انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ...
وفي « قهوة الليل » كانت الريح تعصف بشراسة . وتهز الصياد صاحب
المكان العاري ، في سريره المهترى ...
وحول المصباح ، تملق الرجال ، وضاعت الطاولة اليتيمة تحت
أيديهم الكبيرة ، المليئة بآثار الجراح وعضات السمك والليل والملح . دوى
الرعد ، فأشار أبو مصطفى بيده المقطوعة الاصبع إلى البحر ، ذلك الرجل
الأسود الذي كان يغلي عند الافق وقال : « الصيد غير ممكن الليلة يا شباب ،
فلنعد الى بيوتنا والرزق على الله . »
صرخ صوت : « دعونا على الأقل نسجل قائمة بمطابنا . هاتوا قلماً
وورقة . مصطفى سيكتبها لنا . » وجدوا قلماً ولم يجدوا ورقة ، واخيراً أخرج
أحدهم من صدره صرة أكل ملفوفة بكيس أصفر ، وتم فتح الكيس الأصفر ،
وتوضييه كورقة لكتابة المطالب ، وكان في طرفه بقعة زيت كبيرة وآثار بندورة ...
ورغم الريح التي تعصف بالورقة فقد استطاع مصطفى أن يكتب بيد مرتجفة :
« كل شيء ضلنا . البحر ملوث . وسائلنا للصيد بدائية ، ولذا نصطاد
في الليل ونعجز عن الصيد أكثر أيام السنة وعن الذهاب إلى عرض
البحر . الاسماك تفقد العافية . المجاريير تصب في البحر والاسماك تفقد العافية .
الثفايات بما فيها من تلك تعلق بشباكنا وتقطعها بحافاتها الحادة كالسكاكين ،
وهي مصدر رزقنا الوحيد ... »

وانهمر المطر : وبدأ يغسل الورقة والرجال : ولم يبد على أحد أنه يهتم
بل تابع مصطفى الكتابة : « نحارب على كل الجبهات . الطبيعة . اهمال
المسؤولين . الفقر . الصيد بلا ضمانات . انه ملك للمحتكر ككل شيء في
هذا البلد . المحتكر الذي يشتري ما نصطاده يفرض علينا السعر الذي يريد .
لا تعاونيات . لا برادات ... »

المطر الشرس يغسل الورقة ويمحو الكلمات . لكن الرجال يستمرون ويستمر
مصطفى في الكتابة .

« ... ولاننا لا نملك تعاونيات أو ثلاجات لحزن السمك فنحن نضطر
إلى بيعه بالسعر الذي يفرضه فاضل السلموني ونرجس السكيني وزمرتهما ...
« الصيد بلا ضمانات . انه معرض للتشويه والموت وتشريد أسرته أو
أطفاله ... لا ضمانات له . لا تقاعد . لا شيء ... »

انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ، ولكن اليك لم يأبه به وإنما تابع
حديثه الهاتف قائلًا :
لقد تم اقرار « قانون التقاعد » لنا وللوزراء والرؤساء... ألو ! ... هل
تسمعي ؟ .. ألو ؟ .. »
أغلق فاضل السلموني السماع غاضباً وهو يدمدم « انقطع الخط » ويشتم
« كلما امطرت وارعدت تعطل الهاتف » ..
ولكن انقطاع حوار الهاتف مع صديقه أبي نمر لم يضايقه. كان مسروراً
باقرار القانون الذي يضمن للنواب والوزراء وغيرهم من كبار « حماة الشعب »
مستقبلهم من غدر الزمان ! ..
وفكر اليك بالبصارة فائزة . لقد تنبأت باقرار القانون . هذه المرأة تعرف
كل شيء وهو يعتمد عليها أكثر من أي شيء . حتى حينما كان وزيراً كان
يتسلل اليها طالباً المشورة والنصح ! .. وقد التقى ذات يوم برئيس الوزارة
خارجاً من عندها ! .. تبادلوا السلام مرحجين ، مثل قاضيين التقيا صدفة بعد
الدوام في حي المومسات ، وتجاهلا الموضوع تماماً ، لكن رابطة ما صارت
تشدهما نجم عنها تجمع سياسي كانت له انعكاساته الحسنة على مصالح فاضل بك ..
« فائزة كلها خير وبركة وعلم . » وعلى هذه النية والحكمة ، نهض
فاضل بك يرتدي ثياب السهرة ، وكان الرعد لا يزال يقصف بيروت ، ولم
يبدُ عليه انه يسمعه أو يلتفت اليه .

ساح الخبر واهترأ الورق وجفت حلوق الرجال في « قهوة الليل » ،
وابتلوا بالمطر حتى قاع عظامهم ، وحين دوى الرعد كان أبو مصطفى أول
من تكلم : « فلنعد إلى بيوتنا . »

سأله صوت : « من معه ليرة لأستدينها ؟ » سئل أبو مصطفى : « يا
ليت ! » وخرجوا من « قهوة الليل » وابتلعهم الليل ...

و حين وصل أبو مصطفى وابنه إلى كوئهم كانت الاضواء مطفأة
والجميع نياماً ... دخلا دونما تحفظ في حركاتهما ، فقد اعتاد الجميع النوم
أياً كان الضجيج . هذه حال الذين يقطنون غرفة واحدة ويتقاسمونها . أنهم
لا يستطيعون التمتع بترف الانزعاج من الجلبة . ١٢ شخصاً في غرفة واحدة ،
هل يمكن ألا يصدر عنهم صوت حتى ولو كانوا جميعاً غارقين في سبات
عميق ؟ اندس مصطفى في ركنه المعتاد ، وأبو مصطفى إلى جانب زوجته التي
كانت تشخر كعادتها بصوت عال .

الظلام شبه دامس ولكن مصطفى لم يغرق في النوم ... تنبّهت أعصابه
حين كفت أمه عن الشخير ، وعرف أنها سيمارسان ذلك من جديد . وحين
علت أنفاسها وتسارعت وامتزجت مع أنين أبيه وشهقاته أحس بالعرق يغطي
وجهه ... صارت الغرفة الصغيرة مثل رحم واحد من اللحم الحلي ، وشعر
بأن جدرانها اللحمية تنقبض وتنبسط مثل حركات قلب نابض ، الجدران
تعرق وجو الحمى يلف الغرفة ، ويلف جسد مصطفى ، ويداه تحاولان ممارسة

لعبة الجنون الفردية . وأحس بأنه يزحف بجسده العاري فوق جمر لسعه لذيد ،
مسترسداً بإيقاع والديه ... وأخيراً هطل المطر الدافئ ، وأحس بجسده
يهوي باسترخاء في بركة من الزوجة الجنون . وصمتت الغرفة ، وعادت
الجدران إلى مكانها ... وكفت الغرفة عن النبض وزاوتها كهارب الحمى ...

(كلما عجز والدي عن الصيد وعاد مدحوراً من البحر يذهب لصيد
العصفور الذهبي في حدائق أمي ... والنتيجة فم جديد يجب إطعامه ، وجسد
طفل جديد يرتقي في غرفتنا الضيقة ... انه يفرغ ثورته في الفراش ، وأنا أكل
نفسي بنفسني . لا أستطيع حتى أن أتحدث إلى الفتاة التي أحب ... القمع في
كل مكان . كل ما أستطيعه في هذا الجو الخانق هو أن أكتب لها رسائل الغرام
وأرمي بها عند مدخل بيتها حين تعود من المدرسة ، ومثل الجواسيس نتبادل
الخطابات .. وأحلم بها في رحلاتي الفردية إلى جنائن التفاح المحرم ، وأحلم
بها مدحوراً وعبثاً أنسجها بين أصابعي .. وأبي يعود من رحلته مدحوراً وعلى
كتفه طفل جديد) ...

عجز مصطفى عن النوم . أحس بأن كل شيء ، موجود خصيصاً
لقهره ، ولتدمير أي محاولة له للخروج من مأزق الفقر والكبت والقهر ...
وبأن رحلاته وحيداً إلى وديان اللذة الانية ستودي به إلى الجنون ...
انسل من فراشه وغادر البيت ، وكان الرعد يقرع صدره بشراسة لكنه
لم يبال . لقد اعتزم أمراً وسينفذه . يبدو له وكأنه الحل الوحيد الممكن . انه لن
يسقط في بئر اليأس . أجل ، لن يسقط ولن يموت هدرأ ...

قرع باب الرفيق نديم ... قرع طويلاً ، ثم أطل صوت مسكون بالنعاس : من؟ ..
— أنا مصطفى . افتح يا نديم ...

صرير باب . ضوء متماوت . نديم يسأل وهو يرى شباب مصطفى
مغسولاً بالمطر والدمع والرعد : « ماذا حدث ؟ » .

— سأنضم اليكم . لم أجد حلاً آخر .

— لن تندم أيها الرفيق . أهلاً بك .

انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ...
وحينما التمع البرق ثانية التفت طعان إلى الوراء : وكلمح البصر شاهد
وجه الرجل الذي ظل ساعات يمشي خلفه . وقرر : (لست واهماً .
هنالك من يلاحقني .) وانفجر الرعد : وانفجر الخوف في قلبه .
ما دام هذا الرجل يلاحقه فلن يجرؤ على الذهاب إلى مخبئه في بيت أخيه
نواف . سيظل يدور في الشوارع محاذراً الخلفية منها أو المظلمة . سيظل مجرّراً
جسده من مقهى إلى آخر : محاذراً الانفراد . سيظل مسفوحاً على اسفلت
المدينة ، مشتتاً وضائعاً ومذعوراً كالمياه الراكضة إلى المجاري . (هنالك
من سيقتلني . هنالك رصاصة تم إطلاقها حين اتخذوا في « الجحود »
قراراً بقتلي أخذاً للثأر ، ولم يبق إلا ان تستقر الرصاصة في جسدي . ترى أين
ستستقر الرصاصة التي ستطلق علي حتماً في ليلة ما ؟ ! . في دماغي ؟ في صدري
في القلب تماماً ؟ أم في احشائي ؟ وسأنزف ببطء واتعذب عذاباً طويلاً قبل
أن اموت ؟ ولكن لماذا اتعذب ؟ ولماذا اموت هكذا ميتة كلب أجرب وأنا
لم اقترف ذنباً غير أنني استطعت أن أتابع دراستي وأصير صيدلياً ، دون أن
أدري أنني يوم تخرجت وحملت شهادتي كنت احكم بالاعدام على نفسي !
أي منطق هذا منطق العشرة التي ولدت فيها ؟ ! أي جنون ... أي جنون
يحكم هذا العالم ؟ !) .

يوم تخرج طعان منذ أشهر صيدلياً . كان يتحرق للعودة إلى لبنان ومزاولة

العمل . قرر ان يفتح في بعلبك صيدلية يسميها « صيدلية الحنان » .
ابرق إلى اهله يزف اليهم الخبر ، ويحدد موعداً لعودته ، ولكنه فوجئ
ببرقية منهم تطلب منه عدم العودة ، وتغفل حتى تهنتته بالشهادة ! اذهله
سلوكهم فابرق اليهم بموعد عودته ، واستقل اول طائرة إلى بيروت . في
المطار فوجئ بقبضات العشيرة في استقباله وبينهم من هو مطلوب من العدالة
وفاراً من وجهها ، ولا يظهر في الاماكن العامة الا في حالات الطوارئ .
كانوا يضمونه بيد واحدة والاخرى في جيوبهم متوترة . (انهم يقبضون على
مسدساتهم . ما هذا الاستقبال وانا المسالم الذي لم يقتل في عمره نملة ؟) لقد
اختار ان يكون صيدلياً انطلاقة من رقة قلبه المفرطة التي حرمته حتى من أن
يكون طبيباً أو جراحاً . انه منذ طفولته يكره منظر الدم . فقد فتح عينيه
على بركة من الدم ، دم عمه القتل . ماذا حدث حتى يجيئوا اليه إلى المطار
حاملين رائحة الدم والدمار ؟ ! .

في السيارة سأل والده واستمع مذهولاً إلى حكم الاعدام عليه بجرم حمل
شهادة جامعية ! « لقد قتل ابن عمك مرعب احد افراد عشيرة الخردلية ،
أخذاً بالتأثر لعمك . والقتيل كان يحمل شهادة جامعية ، ولذا قررت عشيرة
الخردلية أخذ التأثر ، على ان يكون القتل من عشيرتنا أول شاب يفوز بشهادة
جامعية . وتصادف ان كان هذا الشاب هو انت ! .. انه التقليد العشائري
الجديد في أخذ التأثر . التأثر لقتيل امي بقتيل امي . والقتيل المتعلم لا يثار له الا
قتل متعلم من العشيرة الاخرى ! »

وفكر طعان بحزن : (لقد دخلت التكنولوجيا إلى فكر العشيرة ، وها هم
يقدرون العلم !)

توقف طعان قليلاً امام اعمدة سينما « الحمراء » في شارع « الحمراء »
متظاهراً باشعال لفافة ، محاولاً التأكد مما اذا كان الرجل لا يزال يلاحقه .
كان المطر لا يزال يتفجر وبقايا دفء الصيف تندحر . واحس بغصة غامضة
في قلبه . لقد اشتاق إلى المرأة . إلى الحب . إلى السباحة . إلى الغناء . إلى التسكع .

إلى الجلوس في مقهى والاستماع إلى ضحكات الفتيات الصغيرات الجميلات اللواتي يتفجرن دعوة إلى الحب والجنون . تعب من السير في الشوارع مثل أبطال افلام « المافيا » ، متلصصاً وخائفاً . تعب من حمل المسدس الذي لا يجيد حتى استعماله . تعب من الاختباء في بيت شقيقه نواف ، واغلاق الباب بالمتاريس . تعب من اسدال الستائر ونحاشي الوقوف امام النوافذ .

تعب من البطالة وانتظار الموت الذي يجيء ولا يجيء . تعب ... تعب ... تعب . انه يرتجف . يشعر بانه لم يعد يقوى على الوقوف . اللقافة تسقط من يده . الرجل لا يزال يلاحقه ، (ام تراني واهماً ؟ كل رجل في الشارع اخاله يلاحقني ! اعصابي متعبة . يجب ان انسحب إلى وكري . يجب ...) .

أشار إلى أول « تاكسي » . استقله . أدلى بعنوان بيته كمن يقشي سراً خطيراً . في الحقيقة لم يدل بعنوان بيته ، بل باسم الشارع فقط . سيمشي المسافة الباقية ويتأكد من ان أحداً لم يلحق به في « التاكسي » . التفت إلى الوراء . كان نهر من اضواء السيارات يومض . يتأملها بهلع ! .. يحس بأن كل هذه السيارات التي تلاحقه مليئة بالرجال الذين أصابعهم على زناد رشاشاتهم ولحظة يهبط من « التاكسي » سيثقبه الرصاص في كل موضع من جسده . وسيرتجف وهو يسقط كأنه يرقص . واذا نجا من الموت في الشارع واستطاع ان يصل إلى فراشه حياً فستحاصره الكوابيس وسيستيقظ على صوبت الرصاص وهو يحصده ويحصد شقيقه وأطفاله . سيأتي الرجال لقتل أهل البيت كلهم . وسيسقط شقيقه نواف قبل ان يتسنى له الوقت لاطلاق رصاصة واحدة .

توقف « التاكسي » . نزل طعان ولاحظ وقوف أكثر من سيارة في الشارع نفسه . أكثر من شخص يلاحقه ؟ ولكن الشوارع للناس جميعاً ! (توقف سيارة في الشارع الذي اختبئ فيه لا يعني بالضرورة ان سائقها يريد قتلي . لا ! بل يريدون قتلي . اعرف ذلك . لقد مت يوم حكموا عليّ

بالموت انتقاماً لرجل لم يقتله ولم اشارك في قتله ولم ار وجهه من قبل ، وها انا
اجرجر جسد ايامي المهلورة .)
بدأ يسير بخطى جهد ان تكون هادئة . فشل . ساقاه تسيران بخطى سريعة
وترتجفان . يسمع وقع خطوات خلفه . يسرع . الخطى خلفه تسرع ، يده
تتشنج على مسدسه . انه واثق من ان شخصاً يلاحقه ويسرع خلفه . الشخص
يقترّب . يضع يده على كتفه . لا مجال للشك الآن . دون ان يدري ما يفعل .
يستدير وقد شهر مسدسه ويطلق النار على الرجل . هكذا دون كلمة واحدة ! ..
يسقط الرجل على الارض . للمرة الاولى يرى وجهه ويرى نظرة مليئة
بالدهشة مرتسمة في عينيه ! لقد قتل ... لقد قتل رجلاً لم يقع عليه بصره من
قبل ، وكان القتل يبدو مدهوشاً ! ..

انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ...

انتشل فرح نفسه عن جسد الصبية . كان العرق يتفصد من جسده كله ، رغم البرد والمطر الذي يقرع النوافذ . وانفجر الرعد ثانية . وقالت الصبية : « حاول مرة ثانية » .

اشعل لفافة ولم يقل شيئاً . انه لا يستطيع ان يقول لها انه لا جدوى من المحاولة ، فقبلها كانت على هذا الفراش امرأة اخرى ، وقبلها اخرى ، وفشل معهن جميعهن . سبع نساء في اسبوع واحد ، كل يوم امرأة ، وكلهن فشل في امتلاكهن . (لم اعد امتلك نفسي ولا جسدي فكيف امتلك جسداً آخر) ؟ . هو الذي لم تسلم منه بالأمس بقرة ولاخروف في قريته ، عاجز اليوم عن امتلاك احلى النساء ! قالت له بالرقعة النسائية المصطنعة في مثل هذه الحالات : « انني احبك . جرب ثانية . لقد انتظرت هذه اللحظة طويلاً وانا اراك على التلفزيون او اقطع صورك من الصحف والمجلات وازين بها جدران غرفة نومي . تعال يا حبيبي . يا مطرب الرجولة ! »

كاد ينفجر باكياً ضاحكاً وهو يسمع لقبه « مطرب الرجولة » . « لقد أطلقه نيشان تحت هذا الشعار : « مطرب الرجولة » . جسد فعل ، وشعر كث عند فتحة العنق . وصوت فلاحى اجش بعيد عن التكلف والتخنث ، وسقطت فتيات بيروت في الفخ . صار هذا الرجل يثير فيهن كل الجوع الممكن إلى عصور الرجال الأقوياء ، البعيدين عن التكلف و « البروتوكول » الاجتماعي

القرييين من العشب والسنايل والزهور البرية. الرجال الذين يصفعون المرأة بيد ويحتضنونها بحنو باليد الاخرى . قال نيشان ان في بيروت جوعاً إلى « الرجل الرجل » ، وهو سيوظفه لمصلحته . وهكذا ارغم فرح على لعب دور « الرجل الحمش » وهو في داخله مسكون بالهشاشة والخوف والرقّة . « مطرب الرجولة » ! كلما شاهد هذا اللقب تحت صورته ، التي تصدرت الصفحات الاولى في المجلات ، احس بحاجة إلى البكاء والضحك معاً . وتذكر اول مرة اطلق نيشان عليه هذا الشعار : (كنا معاً في « الشاليه » الخاص به . وكان البحر الخريفي في ذلك اليوم الصباحي يمتد أمامي أخاذاً ساحراً ، وأنا ككل أبناء دمشق وضواحيها اعشق البحر . وتخللت اجساد النساء تغطي الرمل بصباها العاري طوال الصيف ، وأنا ككل رجال العالم اعشق النساء . وكانت مائدة الطعام حافلة بلذائذ الطعام والشراب . ولعبت الحمرة برأسي ، والشمس الخريفية التي لا تزال حارة رغم النسيم البارد . مفعول الحمرة في الشمس يتضاعف مرات ، ولم اكن ادري ما اذا كنت ثملاً بالحياة او بالكحول ! وكان نيشان يتأملني بنظرة صارمة ، فتذكرت كلمته عن « الطاعة » وقررت ان انفذ كل ما يقول كي استطع شراء هذا اليوم المشمس على البحر بكل لذائذه ومباهجه . وتمددت قليلاً في الشمس على شرفة « الشاليه » تنفيذاً لـ « أوامر » نيشان الذي قال ان السمرة البرونزية شرط اساسي للجاذبية وان اكتسابها جزء من عملي . في الحقيقة كنت اتمني ان اركض على الشاطئ حراً كحصان سعيد ، لكنه اصر على ان السمرة المطلوبة يجب ان تم وفقاً لتوقيت الساعة . ربع ساعة اتمدد على بطني . ربع ساعة على ظهري . ممنوع الانطواء كي لا تبقى في جسدي مواضع بيضاء البشرة . انفذ كل الأوامر ، وهو بين الحين والآخر يأتي بزيت البحر ليدهلك لي جسدي .

كنت ممدداً على بطني حين بدأ يدلك لي ظهري وفاح عطر الزيت الثمين . وكانت اصابعه تروح وتجيء على جلدي رقيقة ومرهفة كأصابع عاشق اعمى

يتحسس جسد انثاه ثم استحالت قاسية شرسة مثل محراث يدخل في التربة ...
ثم فهمت ! ..

في الفراش كنت ثملاً ومدهورشاً في آن واحد . فالأمر لم يكن ممتعاً ،
لكنه لم يكن مزعجاً بقدر ما كان يخيل الي . لأجل الثراء والشهرة والمجد
واشياء الحياة السهلة والمجانية كل شيء مباح . ونیشان كان لحمه الكثيف
المترهل يرتعش حباً وهو يقول : « النساء لا يقدرن على منحني هذه المتعة ايها
الرجل الرائع . سأسميك « مطرب الرجولة » . مع الرجولة أحس بالآلفة .
معهن أحس بالغربة . يتمتعني ان اتحد وانساناً اعرفه واستطيع التحدث اليه
واشعر بانه قادر على فهمي . وانا لا افهم النساء ولا يفهمني ، ولا فرق عندي
بين ان اضاجع انثى او عنزة . اما الرجل فشيء آخر . » شعرت انه يحاول
ان يبرر . واحسست بشيء من الرقة نحوه ، لكن شيئاً في داخلي كان يتكسر ..
يتكسر ... واحسست بانني لم أعد املك نفسي . لقد بعتهما وإلى الأبد ... إلى ...
الشیطان !) .

انفجر الرعد من جديد ...

كانت لفافته قد انتهت . مديده ليتناول لفافة اخرى ثم تذكر ان نیشان
نهاه عن التدخين .

كانت الصبية قد انتهت من ارتداء ثيابها ، واتجهت نحو الباب وفي عينيها
نظرة نداء . نظرة تقول انها على استعداد لخلع ثيابها كلها ثانية والمحاولة من
جديد لو ناداها . لكنه لم ينادها .
تركها تذهب .

وحينما اطبقت الباب خلفها شعر بأن الباب بينه وبين عالم النساء قد أوصد
إلى الأبد !

« سأسرق التمثال » هكذا قرر ابو الملا بعد عذاب طويل ...
والواقع ان سرقة التمثال لم تكن صعبة . فموقع الآثار الذي تجري الحفريات فيه مليء بالكنوز الذهبية والفضية التي يتم نقلها أولاً بأول ، بينما تركت القطع الفخارية والرخامية الباقية في الكوخ الصغير الذي يحرسه ابو الملا . سرقة التمثال لم تكن سرقة صعبة عملياً . كان الصعب ان يقنع نفسه بالسرقه . فقد عاش حياته كلها راضياً بالمقدر والمكتوب ، مقيماً الصلاة وحريصاً كل الحرص على راحة البال والتقوى . حتى الفقر لم يكن يحز في نفسه لأنه آمن بأن من البدهيات ان يرفع الناس بعضهم فوق بعض درجات، ولكنه الآن تبدل. منذ اضطرته ضرورات العيش القاهرة إلى حمل ابنته الثالثة لتعمل خادمة وهو يتبدل . منذ وطئت قدماه قصر الحازمية ، حيث تركها ، نبت في قلبه مغبص صار يمزقه في كل لحظة . وحينما كان عائداً من حي القصور الفخمة في الحازمية إلى حي التنك حيث يقطن ، خيل اليه انه يشاهد المكان للمرة الأولى . بيوت جدرانها من التنك . سقفها من التنك . المطر يقطر من سقفها شتاء على الامتعة القليلة المهترئة في البيت ذي الغرفة الواحدة . لا ماء . لا نوافذ . ذباب فقط وفقر وصراخ الاطفال وشتائم النساء ...
انفجر الرعد . « سأسرق التمثال » .

سيسرق التمثال . وسيستعيد بناته . ولماذا يسلم هذا التمثال إلى المتحف إذا كان يستطيع ان يفتدي شقاء بناته بشمه ؟ تذكر محاضرات المهندس ايام كان

لا يزال يعمل في الحفريات . وقتها كان قوياً كالحصان .
لم يكن قد أصيب بذلك المرض في قلبه . كان المهندس يقول : هذه آثار وطنكم
العظيم لبنان . اخرجوها بخرص واحموها من السرقة او التلف اثناء الحفر .
انها تاريخكم . »

وطنه ؟ انه لا يزال يعمل في بطاقته الشخصية جنسية « قيد الدرس » ،
رغم انه ولد هنا وسيموت هنا ! .. تاريخه ؟ انه لا يعرف غير حاضره الشقي .
ثلاث من بناته صرن يعملن خادومات في قصور الاثرياء ، واجرة أولاده العمال
لا تكفي ليعموا اودهم ! .
« سأسرق التمثال » .

وللتمثال عينان شاسعتان تطل منهما نظرة شريرة مخيفة وساخرة .
قال له نديم افندي ، معاون مدير الموقع ، حين شاهد التمثال : « انه
تعفة نادرة . ائمن من كل التماثيل الذهبية التي وجدناها على الشاطئ » . وتوقع
بعدها ان يسارعوا إلى نقل التمثال أسوة ببقية القطع الثمينة ، ولكن بدا ان
نديم افندي نسيه فجأة . تركوه يجلس قبالة طوال النهار ، والتمثال يحرق فيه بهذه
النظرة الشريرة الساخرة . بل انه صار يتحدث ويحاوره . صار يروي له كيف
حمل ابنته إلى قصر الحازمية ، وكيف ضربه مرض القلب فجأة . صار يروي
كل ما يحدث له ويخطر بباله . وكان التمثال ينصت له باهتمام دون ان يقاطعه ،
ثم يرد عليه ، ولكنه لم يكن ليطيّب له خاطره ! كان التمثال غاضباً بطريقة ما ،
وكان في صوته تحريض غامض له على ان يفعل شيئاً ما ! سأله مرة بصورة
مباشرة : « ماذا تريد مني ان افعل ؟ »

واجابه التمثال : « أريد منك ما تريده الأصوات الحقيقية في داخلك .
فتش عنها . انصت اليها . التقطها ومت من اجلها ! أهذه حياة تلك التي
تحياها انت وأولادك ؟ ! »

نشأت بينه وبين التمثال علاقة عجيبة ، وصار يلقي عليه نحية الصباح
حين يندخل ، بل ويتحدثان حتى عن الطقس . ومرة سأل ابو الملا التمثال عن

قصة حياته : وما كاد التمثال يبدأ بتلاوتها حتى دخل بعض العمال فصمت . وانطلقت شائعة في الموقع الأثري مفادها ان ابو الملا يتكلم وحده . وان اكثر من شخص سمعه !

ويوم جاء أحدهم وقدم له عرضاً سخياً رفض فوراً . لقد طلب منه ان يسرق التمثال لقاء مبلغ خيالي : عشرة آلاف ليرة لبنانية ! عشرة آلاف ليرة ، ومع ذلك رفض ان يسيع رفيقه التمثال ، على ما بينهما من مباحكة . كان التمثال ، الوحيد الذي ينصت اليه ويحاوره باهتمام . ولم يبال الرجل برفضه وانما قال له : « فكر . سأمر بك بعد غد . كل ما عليك ان تفعله هو ان تحمله في جيب معطفك إلى البيت ، ولن يكلفك ذلك شيئاً ، بل ستربح عشرة آلاف ليرة . لا تبلغ أحداً والا ! » وأشار إلى رقبته بحركة ذات مغزى فيما ندت عن فمه أصوات تشبه أصوات الذبح .

فهم ابو الملا .

وحين جاء نديم افندي سأله ابو الملا بلهفة : « متى تنقلون هذا التمثال إلى المتحف ؟ اني خائف من مسؤوليته . »

رد نديم افندي بلا مبالاة : « آه ، التمثال ؟ لقد نسيته . نعم . سننقله قريباً . الأمر في حاجة إلى روتين وتنظيم . »

« سيسرق التمثال » .

الليلة سيحمله معه ، وسيأتي الرجل إلى بيته فيما بعد لأخذه .

سيسرقه ...

وانفجر الرعد ...

امتدت يده مرتجفة إلى التمثال وأحس بالخوف . وبدا له التمثال عملاقاً كبيراً ، أحس بانه ضئيل وصغير . وما كادت يده تطبق عليه وترفعه من مكانه حتى تسارعت ضربات قلبه وأحس بقوة خارقة تستولي عليه . ها هو لأول مرة في حياته يكسر قانوناً او نظاماً أو يرتكب شيئاً محرماً . شعر بلذة جبارة تستولي على جسده ، وبنشوة قوة لا حدود لها . وظل التمثال صامتاً ولم يقل

له شيئاً ، لكن اشعة خفيفة كانت تنطلق من عينيه . ام تراه انعكاس البرق ؟ .
وضع التمثال في جيبه وصار يضغط به على جسده منتشياً : كان كل ما
في الغرفة من تماثيل ينوس ويرتجف ويئن ويخفق ... آه !

بعدها بدقائق انهار على المقعد ولزوجة دافئة تستولي عليه . شعر بضربات
قلبه تزداد تسارعاً . وبحيوية عجيبة وانتعاش يملأه . منذ اصيب بالذبحة القلبية
لم يحس بمثل هذه الحيوية . ظل نابضاً ومتوتراً في الدرب إلى بيوت التنك .
وداعاً يا بيوت التنك ! من الآن فصاعداً سيعرف درب اللذات وسيعيش .
سيسرق ثانية . سيجرب كل شيء قبل فوات الأوان . سيجرب القتل أيضاً .
انه لم يقتل انساناً قط من قبل . سيجرب . انه يدفع كل حياته ثمناً ليعاوده
ذلك الشعور المدهش لحظة قبض على التمثال ، وكأنه ضاجع بلقيس ملكة سبأ
التي يروي قصصها الحكواتي .

في كوخ التنك تمدد والتمثال إلى جانبه . زوجته وبقية اولاده كانوا عند
الجيران الذين اشترىوا تلفزيوناً منذ أيام . (عجب امرنا في حي التنك !
نشترى التلفزيون وليس لدينا في الكوخ مرحاض !) . هكذا افضل . انه في
حاجة إلى ان يكون وحيداً ريثما يأتي الرجل ويستلم التمثال ويدفع له عشرة آلاف
ليرة ! لكن التمثال يحدق به بشراسة ساخرة . قلبه يضرب مثل طبل مجنون .
يتتابه شيء من الخوف من نظرة التمثال . ليت ذلك الرجل يحضر سريعاً وينتهي
الامر ! يقرر أن ينهض ويغطيه كي لا يراه ، لكنه يشعر بأنه عاجز عن النهوض ،
مسمّر في مكانه والأشعة من عيني التمثال تشله تماماً . يقول له معتدراً :
« سامحي ! انت الذي حرصتني على ان افعل شيئاً ما . ان اثور واتمرد .
لم يكن امامي غير هذا الحل . »

يرى التمثال يكبر . يكبر . يهبط إلى الأرض . له جسد عملاق . يقترب
منه غاضباً . يحاول ابوالملا ان يصرخ فلا يجد صوته . انفاسه تتسارع وقلبه
المريض سينفجر . يمد التمثال اصابعه إلى عنقه . (يا الهي ! انه يحاول خنقي !
يريد قتلي !) لكنه لا يجد في حلقه صرخة استغاثة واحدة . يرى اصابع التمثال

الحجرية تلف عنقه . تضغط ... تضغط ... تضغط . ويشهق ويشهق ثم ...
لا يشهق .

حين عادت أم الملا إلى الكوخ وجدت زوجها المريض بالقلب وقد قضى
نحيبه . صرخت وولولت وركض الجيران . أما الأولاد الصغار فقد وجدوا
إلى جانب والدهم الميت على الأرض دمية غريبة الصورة من الحجر . ابتسمت
لهم فحملوها وخرجوا يلعبون بها حتى تعبوا . ثم استقرت في بركة من برك
الوحد بين أكوخ التلث .

حين عاد الملا . عامل اللحام بالأكسجين : إلى الكوخ ووجد والده ميتاً
بالخلطة — كما قدر الجميع — لاحظ بعض آثار عنف على عنقه : فعزاها
إلى محاولة أبيه فك أزرار قميصه حين فاجأته النوبة ... وبكى بكاء حزيناً
وقال : « قتله الصبر على الفقر ! » صوب لهباً من النار من جهاز اللحام .
واشتعل الأكسجين لساناً مضيئاً فانصهر السقف التنكي . ونفخت الريح من
الثقب فاطفاً جهازه . وانهار جالساً ويداه مسدلتان كأنه لا يعرف ماذا يفعل
بهما . وتعلقت نظراته بالثقب المفتوح على السماء . كانت السماء سقفاً صلباً
من السواد الدامس . ولم تلتصع في الثقب نجمة . وبدأ المطر يدلف عبره : ونقاطه
تسقط فوق جثة الأب ... بالضبط فوق القلب تماماً ، نقطة نقطة كنز في الليل .

تمطر تمطر ...

(حتام يستطيع قلبي احتواء كل هذا العذاب بصمت قبل أن ينفجر ؟) .

تمطر تمطر ...

وكانت ياسمينه ممددة على بساط من جلد الأرانب البيضاء الناعمة ...
وكانت السلحفاة قابضة قريبا فوق جلد الأرنب . (وحدها السلحفاة تنجو من
السلخ ، وتجلس فوق فرو الأرنب المسلوخ ! .. الأرنب يركض أسرع من
السلحفاة ولكن ما جدوى الركض ما دامت كل خطوة تقود إلى خلل ما ؟) .
ربما لذلك قررت أن تلعب دور السلحفاة مع نمر ! لم تعد ياسمينه الدمشقية
التي تنشر عطرها وفرحها وأغانيها ، واثقة من أن العالم سيحتوي حبها بحب .
هنالك « معادلات » أخرى كثيرة تتحكم بهذه المدينة وتودي بكل من يمنح
بعفوية إلى الدمار . كل من يركض كالأرنب إلى هدفه يقتل ويسلخ جلده .
كل ما في هذه المدينة يعلمها أن تكون سلحفاة – والسلحفاة تصمت وتعرف
متى تخفي رأسها وأفكارها – وهي صارت كالسلحفاة ، لكن صدفاتها محشوة
بالعذاب العذاب العذاب العذاب .

تمطر تمطر ...

وتحس بأنها عارية تحت أسياخ المطر . وحيدة الا من حبها وضعفها ،
مستسلمة مثل جنية تواكب نفسها إلى هلاكها . ونمر تحدّد موعد زواجه . لم
يصارحها بذلك لكنها قرأت النبأ في الصحف ، وقرأت في عيني نمر ليلتها

انتظاراً لاسئلتها أو لدموعها ، ورغم ذلك قررت أن تظل السلحفاة لأنها تحبه.
ويبدو أن الناس في طبقته الاجتماعية يكرهون المصارحة ! كل شيء
في أجوائهم المخملية لعبة « بوكير » . من يكشف أوراقه أولاً يخسر . العواطف
هنا ليست عواطف . إنها لعبة شد حبل . وعلاقة الحب هنا هي علاقة بين
اثنين يعرض كل منهما يد الآخر : من يصرخ أولاً يخسر . وهي لن تصرخ
أولاً . لن تخسر . لا تستطيع أن تخسره ، وستقاتل بكل الصمت الممكن
لتحتفظ به أطول وقت ممكن .
تمطر تمطر ...

وموسيقى كارل أورف تفرسها . وتشعر بأن لعبة السلحفاة لا تناسبها .
وأنها خلقت لتحب وتعطي ببساطة ، لا لتلعب الحب كالشطرنج . وتمطر
وتمطر ... وموسيقى كارل أورف نهر من الجنون . والغرفة تغرق في بحر
من الألوان والأنفاس المحمومة السرية . والسلحفاة تنهض عن جلد الأرنب ،
تخلع صدفاتها ، تقف عارية وهي تتمطى فرحة بجسدها . تستحيل السلحفاة
شفافة وترقص . ترقص ... تبدأ بالطيران في فضاء الغرفة وهي تغني ، وتصطدم
بالنوافذ باحثة عن مخرج خلف النوافذ ...

تمطر تمطر ... وهو يقود سيارته في طريقه اليها .

(تراني أحبها ؟ ! .

هل يمكن أن أحب ، أنا نمر ابن فارس السكيني ؟ .. أنا أحب فتاة فقيرة ،
جاهلة بقواعد السلوك الاجتماعي ، سيئة الذوق في اختيار ثيابها ، أسلمتني
جسدها بلا زواج ؟ ! . حب حب حب . هذا كل ما تتحدث عنه أو تفهمه .
بالنسبة الي هنالك علاقات جنسية لا بأس من استعمال لفظة حب قبل ممارستها ،
وهنالك علاقات زوجية أهم ما فيها تناسبها مع أوضاع والدي السياسية والمالية
وأوضاعي . كل العاهرات اللواتي ضاجعتن كن يتحدثن عن الحب ، لكن
هذه أكثرهن اصراراً . تراها صدقت كذبتها ؟ ! تراها تتوهم انها تحبني حقاً ،
وان الحب موجود حقاً ؟ ! .

ولكن ، إذا كنت أرفضها تماماً ، إذا كانت لا تمس وتراً منسياً في نفسي
فلماذا يهمني مصيرها ؟ لماذا لا أطردها من الدار وانتهي منها ؟ ..

أحبها ؟ اشم في عطائها عييراً لم أعرفه من قبل مع بنات طبقتي ، أم تراني
أخشى أن تكون صادقة في حبها فتنتحر وتسبب لي فضيحة ؟ ! .

ولكن لماذا هذا الهراء كله ؟ لم يسبق لي أن أضعت وقتي في التفكير في
أمور النساء ! اني أفكر فيهن حين أكون معهن . حضورهن الجسدي وحده
يشدني اليهن ، ومتى غبت عنهن يتلاشى وجودهن من نفسي . ثم ان لدي
مشاغل أخرى . تكفيني متاعب العمل التي يخلقها مصطفى السماك ! منذ ان

انضم ذلك الولد إلى الصيادين والمتاعب تتوالى . تطويعهم لم يعد سهلاً . صاروا يستعملون ألفاظاً خطيرة مثل الكرامة والحق والعدالة ... الأوغاد !
حب ؟

حتى ولو كان حباً ، فليس في حياتي متسع لهذه الاشياء . وإذا كنت ليناً مع ياسمينه ، متفهماً لعواطفها ، فسيستبج ذلك أن أتفهم عواطف مصطفى وكل من حولي . وسأفقد سمعتي ومركزي وثروتي . لا ، كل ما يربطني بها هو انها شهية في الفراش !)
تمطر تمطر ...

يقف أمام الضوء الأحمر . يقترب منه متسول صغير يستجدي رغم المطر . يتضايق ويمضي بسيارته رغم الضوء الاحمر ! ..

(أجل ، انها شهية في الفراش . شهية لكثرة شهيتها إلى جسدي ! ليست خويجة معاهد الجنس في ستوكهلم ولكنها تملك حدساً مذهلاً ازاء جسد الرجل ، كأنها تدربت على ذلك أعواماً . انها تتقن ارتشافي كجارية تدربت طويلاً في قصور السلاطين الامويين . ربما كان ذلك في دمها ! ربما كانت النساء الدمشقيات ، كما يشاع عنهن ، يتوارثن تلك المعرفة في دمهن ، أما بعد أم ! معرفة الاستمتاع بالرجل وامتناعه . لا أظني سأدخل عنها نهائياً . سأسلمها موقتاً لنيشان ، وسأتجنبها في فترة زواجي الأولى تحاشياً للفصائح ، لكنني سأعود إليها . اللعين نيشان ! ليت يتم الصفقة ؟ انها في ذروة حالات اليأس . أرجو أن يصعقها بثرائه ، فهي رغم كل ادعاءاتها عن الحب تحب النقود أيضاً ، وسترضخ لأي شيء تحت تهديد الفقر . ولكن لماذا ألومها ؟ أنا أيضاً أحب النقود ، والا لما قبلت بالزواج من نائلة ، تلك السنجابة البليدة !)

* * *

حين وصل نمر إلى شقته ملتصقاً الدفء ، أذهله أن يجد النوافذ كلها مفتوحة ، والرياح تعصف مسعورة ، وياسمينه واقفة أمام إحدى النوافذ ، بردائها الأبيض الشفاف ، مثل فراشة تتأهب للطيران .

سألها بغضب : « ما بك ؟ »
قالت بصوت شبه مسحور : « لقد طارت السلحفاة ! »
صرخ بها : « أيتها المجنونة ، لماذا رميت السلحفاة من النافذة ؟ »
— لم أرمها ... قلت لك انها طارت ... اكتشفت أجنحتها وطار !
قال بمزيد من الغضب : « ارتدي ثيابك بسرعة ! سندهب إلى السهرة
الكبيرة في بيت نيشان ... قد يجعل منك نجمة سينمائية ... من يدري ! ؟ »

* * *

كانت شقة نيشان السرية « جارسونيره » صدقة من جنون وخمرة
وموسيقى وزعيق . وكان كل شيء يرتجف ويرقص حتى الاضواء .
كانت هنالك فتاة عارية يرسم أحدهم على جسدها بدهان ملون
وبأصابعه ، بينما تتعالى صرخات الاستحسان للرسم المناسب في الموضع المناسب !
وكانت هنالك مزهرية مرمرية مملوءة بالشمبانيا مثل كأس شاسعة ، تسبح فيها
فتاة عارية تماماً . وكانت هنالك زنجية عارية تراقص « بلاتينية » عارية . وكان
هنالك أيضاً رجال من الذين تشاهد صورهم في المجلات ، يتحدثون رغم
الضحجج ، غارقين في حوارهم ، غير مباليين بكل النساء العاريات المسفوحات
على الأرض كالمياه الاسنة في الشوارع ! .. وفكر نمر :
(« بزنس از بزنس » . العمل أولاً ! في سباق الذئاب لا مكان للحب أو
الرحمة . من يسمح لنفسه بالضعف يلتهمه باقي القطيع ويتابع ركضه .)
وأحس بنفسه قوياً وقاسياً وهو يقدم باسمينه إلى نيشان ، رغم غصة غامضة
في أعماق أعماقه تكاد لا تدرك ، وقد ظننها حرقه في معدته فقرر ألا يفرط في
الشراب الليلة !

ومد نيشان يده المرصعة بخاتم ماسي كبير يؤكد انه رجل أعمال كبير
جداً ، وحين صافحها كان ليده المترهلة ملمس ضفدعة ميتة لزجة !
أجفلت . للمرة الاولى في حياتها ترى مكاناً كهذا ، وهذه أول مرة
يصطحبها نمر إلى مدينة العري بدلاً من ان يحتفظ بها لنفسه . انها النهاية !

وتقرر أن تنفرد بنفسها . تدعي أنها ستصلح من زينتها ، فتعتمد من الرجلين راكضة إلى مرآة الحمام . ما تكاد تنهض حتى ينفجر الرجلان في ضحكة متواظمة . ويقلد نيشان لهجة نمر : « شكراً لدعوتك المفاجئة غير المتوقعة ! ما هذه الطلاقة في الكذب ؟ كدت أقول لك : ولكن السهرة كلها أقيمت لتسليمي البضاعة ... عفوا المدموزيل . مدموزيل ؟ ! ثلاثة شهور وهي تركض كالغزالة في فراشك ولا تهدأ . تشرفنا مدموزيل ! » يضحكان . يسأل بعض الفخر : « ما رأيك فيها ؟ »

يقول نيشان باحتقار : « بدينة بعض الشيء ، ولا تعرف كيف ترتدي ثيابها أو تتحرك . أنها مثل غانية من الدرجة العاشرة ورثت ثروة ولكنها تجهل معنى الاناقة . هذا « الديكولتيه » الواسع يفضح وضاعة ذوقها . — ولكن صدرها جميل ومثير ! ..

— أنت تعرف أن صدرها لا يهمني . النساء لا يستهويني . المطلوب منها أن تظهر معي ومع فرح في الأماكن العامة لا أكثر ، حفظاً للمظاهر . المطلوب منها فقط أن تحسن ارتداء ثيابها . إنها ، على ما يبدو لي ، تحسن خلع ثيابها فقط ، وهي خدمة لا أطلبها منها ! »

يسأل نمر بقسوة من اعتاد على التعامل مع الصيادين وقمعهم : « هل تأخذها أم أفتش عن صديق آخر يسدي إلي هذه الخدمة ؟ »

يرد نيشان بصلاية مشابهة وقد فقد الرجلان كل عذوبة « كرافاتهما » الحريرية والعطر الذي يفوح منهما ، وصار لعينيهما بريق رجلين يقتتلان في منجم : « سأخذها بشرط أن تتفاهم مع عمك المقبل فاضل بك السلموني على أن ترسي المناقصة علي . خدمة مقابل خدمة . ياسميتك لا تستهويني ، وسأجعلها عشيتي مؤقتاً لأجل العمل لا أكثر . »

— مفهوم . سيكون أول ما أفعله بعد الزواج تأمين الصفقة لك و ...

— واستعادتها . يبدو انك لا تزال راغباً فيها بطريقة ما !

وقطعا حديثهما حين عادت ياسمينة وقد صبغت شفيتها بلون أحمر فاقع .

واشماز نيشان وهو يتأملها : (ما أبشع النساء ! يتركن على الوسائد
بقعاً من الكحل والأحمر ، ويلطخن الشرشف غالباً بأشياء أخرى !
الرجل جميل ونظيف ولا يخلف الاقدار خلفه . انه أجمل حيوانات
الطبيعة وأروعها ! ولكن ضرورات العمل تقتضي مغازلة هذه البقرة .
فليكن ! « بزنس از بزنس » ، وامبراطوريتي سأبنيها بأي وسيلة .)
نبايقته رائحة العطر النفاذة جداً التي فاحت من ياسمينه بعد عودتها ، رغم
كل الروائح الأخرى التي كانت تغطي في المكان مع الموسيقى .
قال لها برقة : « رائحة عطرك رائعة . »

بعفوية أخرجت زجاجة عطرها وسكبت على يده منها . أجفل كمن
لسعته أفعى . هذه البقرة الصغيرة لا تستطيع أن تفهم كم هو يحب جسده
ويرعاه ! العطر يحرق الجلد ، وهو لذلك لا يستعمله الا بشكل « سبراي »
(رشات) وعلى ثيابه فقط ! انها ليست مرهفة على الاطلاق . كأن حواسها
كلها معطلة باستمرار ، الا في الفراش ربما ، ولكنه ليس مهتماً بذلك على
الاطلاق . فرح يستولي على شهواته كلها . فرح بجسده القروي القوي ...
سأله نمر : « ما أخبار نجمكم الذي أطلقته شركتك للعلاقات العامة ؟ »
أجفل نيشان : « هائل . لقد ضربت اسطواناته الاولى كل أرقام المبيعات
السابقة . حفلته في « بيسين عاليه » جلبت ايرادات خيالية . انه عجيبة طيبة
في يدي . علته انه كان « غاوي » قراءات فلسفة ، لكنه سيشفى قريباً من
مرض التفكير والحساسية . »

« المصباح السحري » يشق دربه إلى عرض البحر ورذاذ الموج يغسل وجوه الرجال ...

لا يدري مصطفى سبباً للضيق الغامض الذي يجثم على صدره الليلة . انه لم يعد حزيناً من أجل أسماك المحيط . لم تنكسر العلاقة بينه وبين كائنات الطبيعة ، ولكنها نامت ، وحلت محلها رابطة تشده إلى المعذبين أمثاله وأمثال أبيه من فصيلة أسماك الأرض ، أولئك الضائعين في سراديب قسوة الحياة في بيروت مثل أسماك مرغمة على السباحة في المجاريير رغم شوقها إلى الحرية والشمس والماء النقي ! صار مشغولاً بالحرب مع آل السكيني والسلموني وطبقتهما التي تسرق اللقمة من أفواههم . لم تعد أذناه ، الرومانتيكيتان سابقاً ، تلتقطان أنين السمكة الساقطة في الشبكة ، بل صارتا مشرعتين لانيين الناس حوله ، ولانيه الشخصي ، لانيين الرجال الذين يقتحمون البحر والليل والمخاطر بينما يغفو نمر السكيني وأمثاله في يخوتهم !

والده مثلاً ، سمكة التعب الكبيرة ، وجهه محموم منذ الصباح ، والدم الذي يبصقه مع سعاله لم يعد وردياً . صار أحمر قانياً . هوسه بحكاية المصباح السحري بدأت تتحول إلى جنون مطبق : انه واثق من لقاء الجني قبل موته ! عبثاً حاول اقتناعه بعدم الخروج الليلة . لقد أصر . بل وأحضر معه أصابع الديناميت الممنوعة . انه محتضر ومجنون . يا لها من ليلة ! للمرة الأولى يصيد بالديناميت بعد حادثة قطع أصبعه .

يتأمله . يراه رغم الظلام النسي . ويرى العرق يتفصد من ملامحه . مثل
مقامر يضع في ضربة واحدة كل ما يملك . يقامر مع القدر والريح ، ويلعب
الروليت مع البحر ...
أجل ، لوالده وجه مقامر ، خصوصاً الليلة . ربما كانت الحمى . وربما
كان شيئاً آخر ! ..

ابو مصطفى صامت تماماً . انها ليلة العمر وضربة العمر . طوال عمره
وهو شبه واثق من أن جني المصباح ليس بعيداً ، وانه لا بد وان يصطاد المصباح
السحري ذات يوم وتتحقق كل رغباته وينعم بالسلام الداخلي والغبطة . اليوم
أكثر من أي وقت مضى يحس بقرب جنيّ المصباح منه . كلما ازدادت ثقبوب
رثيته في الشهر الماضي كلما ازداد احساساً بقرب الجني وبكنهه ، كأنه يلزمه
بطريقة ما .

ثلاثون عاماً وهو يركض على الأمواج بحثاً عن الجني . ثلاثون عاماً وهو
يومي بشباكه ثم يتحسس يديه محتواها لعله يجد المصباح ! .
انه محموم محموم ، لكنه يحس ان المصباح قريب قريب ، وان
المعرفة باتت وشيكة ، وأن اللقاء محتوم محتوم . فقد قضى عمره وهو
يسعى اليه ...

رمي بشباكه . أشعل فتيل الديناميت . الحزمة كلها دفعة واحدة . وقبل
أن يسمع صرخة ابنه والرجال قفز بها إلى الماء . ها هو جسده كله حزمة
ديناميت لصيد المصباح ..

دوى الانفجار مع صرخة مصطفى . اصطخب الماء ثم هدأ كل شيء
دفعة واحدة . اصطبغ الموج بلون أسود . طفت على السطح جثة ممزقة بين
الشباك الممزقة . رفع الرجال الشباك . خرجت جثة ابو مصطفى كسمكة نادرة
مضرجة بالدم ، مختلطة ببتف الثياب وأشياء غامضة مكسرة وبقايا ... وخيل
إلى مصطفى أنه يرى بين البقايا حطام مصباح عتيق عتيق ، أم تراها بعض
عظام والده مغسولة بالدم ؟ ! . وخيل اليه انه يرى عموداً من الدخان والرماد

يتصاعد من بقايا أبيه ثم يتلاشى في الفراغ المعتم البارد، مثل دخان جني قبل
التلاشي الأخير . ولعل في رأسه معرفة شبه أكيدة ، فصرخ يخاطب جشته
الممزقة ويكيها : « ولكنك لم تعرف قط كيف تخرج من القمقم ! وما كنت
تفتش عنه لم يكن في أعماق البحر بل في أعماقك ! »
وانفجر يبكي ...

قال المحامي لطعان : — وضعك سيء جداً . لقد قتلت رجلاً لا تعرفه
دون أي مبرر !
— قتلت دفاعاً عن النفس .
— لكنه لم يكن يحمل سلاحاً !
— قتلت لأنه منهم . يريد الاستدلال على مخبئي لقتلي .
— ولكنه كان سائحاً أجنبياً غريباً . لعله ضل الطريق وحاول أن يسألك
عن الدرب !
— مستحيل !
— أثناء احتضاره في المستشفى قال انه حاول سؤالك عن الدرب فرددت
عليه برصاصة !
— اه ! اه ! اه ! اه ! اه !
وسقط رأس طعان بين يديه . لقد نجحوا في النتيجة في قتله ، بطريقة ما .
أرادوا قتله لأجل رجل لم ير وجهه قط ، ودفعوه ليقتل بنفسه رجلاً لم ير
وجهه قط ! ثم هاهم يشدونّه إلى المشتقة ليقتل رجل لن يرى وجهه قط !

لحظة استيقظ فرح من نومه سمع صوتاً في أعماقه يصرخ به : « اهرب ... اهرب ! اترك كل شيء وعد إلى قريتك . اهرب ! . »
رغم أقراصه المنومة لم ينم جيداً . منذ فقد القدرة على الصلاة وعلى مضاجعة النساء لم يعد يعرف النوم . صار أيضاً يسمع أصواتاً كثيرة في داخله — كأنها صوته وليست صوته — ويجد نفسه يرد عليها بصوت عال عال ، نیشان أيضاً حذره من عادة الكلام وحده . انه لم يعد ينام لكنه لم يعد يستيقظ . يحس بانه في كابوس مستمر ، لا هو حقيقة ولا وهم ولا حياة ! انه يمارس شيئاً يشبه الحياة ولكنه ليس بالحياة ! تذكر أن عليه اليوم ان يذهب إلى الحلاق لشراء « بيروك » من أجل عقده الحديد لبرنامج التلفزيوني . ثم الخياط . ثم الغداء في مطعم « اللوكولوس » الفخم مع نیشان .. ثم أقراصه المهدئة لينام استعداداً لسهرة رأس السنة ... حين وعي برنامجي لذلك اليوم داهمه ضيق شديد . وقرر : (لا أريد ان أحيا هذا النهار أيضاً .) سكب كوباً من الويسكي بدلاً من كوب اللبن الذي حمله اليه الخادم . ابتلعه دفعة واحدة مع قرصين منومين ، وعاد إلى فراشه وقد قرر أن ينام حتى صباح الغد ..

في مطعم « اللوكولوس » الفخم جلس فرح شبه مخدر . رغم الدوش
البارد وصفحات نيشان والحبة المنبهة التي ابتلعها فهو لا يزال يحس بالدوار .
لقد جره نيشان من فراشه مثل كلب صغير ، وأفهمه انه راهن عليه ولن يسمح
له بالانسحاب من السباق . وصفعه ثم قبله ثم صفعه ثم قبله ثم أمره بارتداء ثيابه
ثم جره إلى المطعم لأن منتج فيلمه الأول يريد أن يراه ..

ها هو يأكل الطعام الفخم الذي طالما شاهد صورته في المجلات وحلم به ،
لكنه لا يحس له طعماً في فمه أكثر مما في حزمة من التبغ من طعم !
الفتاة التي تجلس معهم على الطاولة صامتة . قدمها له نيشان : « مدموزيل
ياسمينة . » تأملها بعينين غائمتين . خيل اليه انه شاهدها من قبل . أين ...
أين ... أين ؟ لم يعد يذكر .

وهي أيضاً عادت تتأمله وتحاول أن تتذكر أين شاهدها ، ولكن أفكارها
كانت تشتت دوماً لتعود إلى نمر . ترى أين هو الآن ؟ ومع من ؟ ولمن يتسم
وينثر ضيائه الاشقر ؟ هل انتهى كل شيء وعليها ان تبقى مع نيشان ريثما
يسلمها بدوره لرجل آخر ... وآخر ... وآخر ؟ ..
قال فرح لياسمينة : « بخيل إلي انني شاهدتك من قبل يا مدموزيل
ياسمينة ! »

قالت ياسمينة لفرح : « وأنا أيضاً بخيل الي انني شاهدتك من قبل » .
وأضافت وهي تتأمل بيروت من النافذة من بعيد :

— « ما أجمل هذه المدينة من بعيد ! »
همس فرح : « أجل ! من بعيد ... من بعيد ! »
ولم يتحاورا بعدها . كان الحوار من نصيب نيشان والمنتج ، فراحا يراقبان
ما يدور صامتتين وبائسين ، ينطلق من وجودهما سحر الفراشات لحظة الاحتراق
بالاضواء .
ولم يتذكرا انهما كانا رفيقين في « التاكسي » الذي أقلهما ، منذ أشهر ،
إلى بيروت .
كأنهما صارا شخصين آخرين !

اليوم عليها أن تقرر : الانتقال إلى شقة نيشان أو ... الفقر ! تدور في شقة نمر الفخمة مدعورة . لا شيء يخيفها كالفقر . وهي قد اعتادت الحياة السهلة خلال الشهور الماضية ، ولم تعد قادرة على العودة إلى حياتها الكادحة ، بعد أن ذقت طعم اليخت و « الشاليه » و « الكافيار » .

كان الطقس جميلاً ومشمساً . فخرجت بعد الظهر تتمشى عليها تجد ذاتها . فما وجدت الا الرعب .

مرعب منظر الفقراء المكومين في فسحة من الأرض المهجورة — الا من القمامة — بين قصور « الرملة البيضاء » . لا سيما وانهم هناك بقصد الزهرة ! . مرعب منظر الزحام على « الكورنيش » ، والناس يفرشون الأرض ويأكلون البزر ويستمعون إلى « الترانزستور » والاطفال يتقلبون على أوساخ الرصيف ..

شاهدت امرأة حاملاً تلاحق طفليها . بينما جلس زوجها على كرسي ممزق يتأمل البحر ويدخن نارجيلته وقد تدلى كرشه . هذا أفضل مصير يمكن ان ينتظرها اذا تزوجت من طبقتها . هي لا تستطيع أن تتحول إلى امرأة تقتات بالضجر وصراخ الاطفال وشخير الزوج المتعب . لا تستطيع أن تحيا من دون الرعشات ، والفراش العريض المغطى بالفرو ، والقبل الحافظة في السيارات « السبور » ، والمضاجعة داخل ماء البحر من خلال فتحات « المايوهات » الشمينة !

ركبت « التاكسي » وهربت عائدة إلى شقتها ، بالأحرى شقة نمر
الفخمة . حين هبطت من « التاكسي » على الرصيف المقابل لبيتها وتأهبت
لقطع الشارع : جاءت سيارة « سبور » تهدر بسرعة وكادت تجتاحها . ونجحت
هي ، لكن طفلاً كان يقطع الشارع مثلها صدمته السيارة وطوحت به في
الهواء وقذفته بعيداً ... وظلت راكضة ولم تتوقف لترى ما حدث له ! ..
لم تقو على الذهاب إلى الطفل لترى ماذا حدث له . جسده لم يتحرك ولم
يصدر عنه أي صوت . وجدت نفسها تنهار على الرصيف باكية باكية ...
ما أقسى هذه المدينة ... ما أقسى أهلها وسكانها ومالكسي سياراتها ! (هذا
بالضبط ما حدث لي : لقد دهسني نمر بسيارته دون ان يتوقف ،
والآن عليّ أن أتدبر أمري وحيدة !)
الآن عليها ان تقرر : الانتقال إلى شقة نيشان أو إلى شقة أخيها . عليها
أن تختار نهائياً بين ان تكون عاشقة فاشلة أو مومساً ناجحة . وتكومت على
الأرض وأغلقت عينيها محاولة التقاط صوتها الداخلي الحقيقي ...

عادت إلى شقة أخيها . لم يكن في حقيبتها نقود . فقد كف نمر منذ أسابيع
عن اغداق المال عليها كجزء من خطته للتخلص منها وتسليمها لسواه ، وهي
نجلت من أن تطلب نقوداً من نيشان .
لقد نسيت شقيقتها في غمرة عذابها طيلة الأسابيع الماضية . ولم تكن على
أي حال تملك نقوداً لتمنحه بعضها .

فتحت باب الشقة نصف الفقيرة . ولم ينقبض صدرها وهي ترى مقاعد
القش الحقيرة ، والجدران عارية من الورق والمخمل ، وبلاط الغرفة لا يغطيه
السجاد العجمي أو « الموكيت » ذو الريش الطويل الذي تغوص فيه الأرجل
العارية . شعرت بالحزن فقط لفراق نمر . حزن حقيقي لا يفوقه شيء . حزن شفاف
شاسع كسماء الصحراء . حزن لا يشبه ألم مدمن حرموه مخدرة ، وإنما حزن من
خانه العالم بأسره وهو في ذروة صدقه وعطائه ! ..

للمرة الأولى تعي حقاً معنى ان تكون من دون نمر ... بالنسبة إليها كان
الامر بسيطاً : لقد عرّت أعماقها المملوءة بالحب للشمس ، ومنحت ..
ومنحت ... وظلت تمنح رغم إحساسها بأن أشياء أخرى كثيرة تتحكم
بالعلاقات في هذه المدينة ، ولكنها لم تصدق أبداً ان فراق نمر عنها ممكن .
لقد التحما معاً ولو في لحظة صدق واحدة . انصهرا معاً . وكانت تظن ذلك
كافياً ليشدهما دائماً ! وحتى في أيام بؤسها الأخيرة لم تكن لتصدق انهما
سيفترقان . كانت تحس بالفراق إحساساً غامضاً ، كاحساس الطريدة ببندقية

صياد مختبيء خلف الأشجار . لكنها الآن للمرة الأولى تشعر بالرصاصة تستقر في قلبها ، لا بل في دماغها . فخلف حزنها الشفاف كالضباب ، المهيمن كالضباب . نفور أشباح أسئلة لم تمر برأسها قط من قبل : (لو ... عرفت رجلاً آخر قبل نمر ، لو سمحوا لجسدي بأن يعيش علاقات سوية في دمشق ، هل كنت أضيع إلى هذا المدى ؟)

ولكن ما جدوى الأسئلة الآن وهي تتعذب والحزن يرسل في حواسها أذرع الاضطراب التي لا فكاك منها ؟

كم هي وحيدة ! ليت شقيقها يحضر ! انه الصديق الوحيد الممكن . كان يجب أن يكون كذلك من زمان ، ولكن ...

فرحت حين دخل شقيقها . فوجيء بها وامتلاً وجهه غضباً . تذكرت انها لم تدفع له نقوداً منذ أسابيع . لم تدفع ثمناً لصمته عن الشرف الرفيع ! صرخ بها : « حسناً فعلت بمجيئك للدفع ... لا أملك قرشاً واحداً للسهرة » .

— ولا أنا .

— كيف ؟ ونمر بك السكيني ؟ ! .

— سيتزوج .

— أيتها الكاذبة الحقيرة ! إذا بدأت بالعمل لحسابك الخاص وصار لك

أكثر من عشيق ؟ ! .

هجم عليها . انتزع حقيبة يدها . لم يجد شيئاً . احتاج . بدأ يضربها على وجهها ضربات سريعة متلاحقة ويشتمها سائلاً : « أين النقود أيتها الساقطة ؟ أين ؟ أين ؟ »

وبدأ الدم يتدفق من وجهها . ووجدت نفسها كالنمرة ترد الضربات دونما وعي وانتابه ما يشبه الجنون حين سقطت يدها على وجهه فصرخ بها : « أيتها القدرة وتضربين أيضاً ؟ سأذبحك ... سأذبحك ! »

وأرادت أن تقول له : « سأدفع غداً ... لا داعي للتظاهر فجأة بالدفاع عن الشرف الرفيع » ، لكن فمها كان مملوءاً بالدم . وقبل أن تقول شيئاً

كانت السكين تغوص في صدرها . ولم تشعر بشيء غير الدهشة ! ..
نصف ساعة ... ثم دخل الشقيق إلى أقرب مخفر . كان يحمل معه سطلاً
مغطى بجريدة . جلس أمام الضابط المناوب . كشف الجريدة عن السطل
وأخرج منه رأس أخته المقطوع وهو لا يزال ينزف ، وقال بصوت رجولي :
« لقد قتلت اختي دفاعاً عن شرفي ، وأريد أن أدلي باعترافات كاملة ! »
ومضت في عيني الضابط نظرة إعجاب ولكنه أعاد الرأس المقطوع إلى
السطل وغطاه بخوف ! وبدأ الأخ يدلي باعترافاته والكاتب يسجلها وفي عينيه
أيضاً نظرة تقدير !

وكان الضابط ينصت إلى الاعترافات ، وحينما سمع اسم نمر ، ابن نائب
منطقتهم ، نهض إلى الهاتف في غرفة مجاورة ، وبعد لحظات كان يفح كالأفعى :
« أبو نمر بك ، آسف للازعاج ولكن الأمر خطير ! .. »
وبدأ يروي بعض ما يدور ، ثم ختم المحادثة بقوله :
— طبعاً ، طبعاً ، سأحتفظ بالمحضر . لا ، لن أسره إلى الصحف أو أي
جهة أخرى ، ولن اكتب تقريراً إلا بعد أن تحضروا . أمرك سيدي ! .. أمرك
فارس بك ... أنا زلمتك .

صفعتان على وجهه .
« أنا نمر فارس السكيني يا كلب . كيف تدعي أنني لطخت شرفك ؟

... -

— شرف لك أنني ضاجعت أختك ، أنا ابن السكيني ...

... -

— المحضر الأول تم اتلافه . سيعيدون الآن استجوابهم لك ، وستردد
ما سبق وقلته من أنك قتلتها من أجل الشرف ، ولكنك ستنسى اسمي تماماً ...

... -

— ستقول انه كانت لها علاقات مع رجال عديدين . لن تذكر اسمي
بل ستتهمها بممارسة الدعارة مع مجهولين عديدين . ستنسى اسمي تماماً ...

... -

— ستنسى اسمي تماماً ...

... -

— سيثبت تشريح الجثة انها لم تكن عذراء ... وسأוכל لك أفضل محامي
البلد ... ولن تحكم بأكثر من أشهر عديدة تنسى اسمي خلالها ، لا في المحكمة
فحسب ، بل وداخل السجن .

... -

— لن تثرثر ! .

...-

- انني سأعتبرك منذ هذه اللحظة موظفاً عندي ، وراتبك الشهري يدفع لك ابتداء من اليوم وطول اقامتك في السجن . وحين تغادره ستلتحق برجلي ، فنحن دوماً في حاجة إلى الذين يتقنون استعمال السكين .

...-

- إذا لم تنفذ ما أقوله لن يتسنى لك حتى أمر المثل أمام المحكمة . سينشب شجار في السجن بين السجناء وستقتل خطأ في الشجار . لن تعيش لتلطيخ سمعتي . والآن اترك لك أن تختار .

...-

صفعتان .

- هل اخترت ؟

صفعتان .

- هل اخترت ؟

- أنا « زلمتك » يا بيلك ... اخترت ... اخترت ... نسيت اسمك .
وينهار شقيق ياسمينه باكياً .

(للتو استيقظت .

لم تعد الحبوب المنومة تجدي ! اني أتعذب باستمرار وأشعر بأن رجليين
يفتتلان داخل جسدي ...

حين جاء نيشان ليأخذني الى السهرة غضب كثيراً . صرخ بي : « فرح .
أنظر إلى نفسك في المرأة ! » قال اني كنت أرندي ملابس النساء وعلى وجهي
ماكياج نسائي ! لم أكن قد لاحظت ذلك تماماً ، ولكنني على أي حال لا
أدري لماذا أغضبه ذلك ! جاء بطبيب غرس دبوسه في شرياني . تظاهرت
بالنوم ولم أكن نائماً . كانا يتحدثان غني ونيشان قلق مما يسميه
تصرفاتي المجنونة . سرتني على أي حال نبرة القلق في صوته !
ولكنني لم أتم . قضيت الليل وأنا أقتل النمل الذي كان يخرج من وسادتي
ليأكلني ...

عاودني ذلك الحادث المؤلم ... انه ليس حلماً كما يدعون ولكنه يحدث
لي فعلاً ... أسير على أرض صخرية ثم فجأة تتحول الأرض تحت قدمي إلى
رمال سائبة ... شيئاً فشيئاً تبتلعني الرمال المتحركة ... وكل ما حولي خواء
وخواء ما عدا لافتة طريق عليها اسم بيروت ... واصرخ واصرخ !
للتو استيقظت .

صوري ، كالعادة ، في أكثر الصحف . مطرب الرجولة فرح ! ها ! ..
ها ! .. صرت أجد صعوبة في القراءة . أعجز عن التركيز . ثم إن أكثر

أخباري في الصحف تتحدث عن أمور لم تقع لي . ان شيئاً لا يحدث لي ، لكن الصحف تتحدث عن غرامياتي وعلاقاتي ! ربما كان نيشان يدبر ذلك . وربما كانت تقع لي وأنسى ! أصبحت كثير النسيان ... اكتفي بمطالعة الصور ... صوري أولاً ...

هذه امرأة مقتولة في بركة دماء جسدها بلا رأس . وهذه صورة المغدورة قبل الموت . لقد شاهدت هذا الوجه ، أين .. أين ؟ مع نيشان في مطعم ما ؟ لا ، ربما كانت تشبهها ! ولكن هذه أكثر نحولاً وأصغر سناً . في « التاكسي » ، أجل ، في « التاكسي » ، في الطريق الى بيروت ، الآن أذكر تماماً . راودني يومها خاطر مضحك : ان أطلبها للزواج وأن نعود إلى دمشق فوراً لتنفيذه ونغض النظر عن بيروت .

أجل . التقينا في « التاكسي » كان ياما كان ... عبتاً أحاول قراءة الخبر ! الحروف تقفز تحت عيني كالبراغيث . العنوان يقول : « مقتل فتاة ... » آه ! لقد أعطتني عنوانها يومئذ ... سأذهب لأخرج في جنازتها ... ولكن أين العنوان ؟ أين العنوان ؟ ..

ماذا يحدث لي ؟ ! فلا نهض ولا رتد فستاني وثيابي الداخلية الحريرية ، ولا جرب ذلك « السوتيان » ، فأنا أعشق حاملات النهود « الدانتيل » نصف الشفافة ... وسأخرج بحثاً عن جنازتها أو أي جنازة أخرى ، لا فرق ! ..)

جو العيادة يشبه غرفة في سفينة فضائية ..

« نيشان ، تبدو مضطرباً ! ماذا حدث ؟ .. »

— انه فرح يا دكتور ... لا أدري ماذا دهاه ! يتصرف أحياناً بطريقة عجيبة . يرتدي ملابس النساء ، يستعمل ما كياجهن ! انتابته مؤخرأ هواية عجيبة : السير في أي جنازة تمر به دون أن يعرف صاحبها أو أي شيء عنها ! .. انه يتحدث مع أشياء عجيبة ، مع السمكة في صحنه مثلاً ، أو مع الدجاجة المشوية ! .. اني قلق ... قلق ! .. حفلته القادمة بعد عشرين يوماً ، وقد دفعت ايجار المسرح ، والاعلانات مستمرة منذ أكثر من شهر ، وبيعت التذاكر بأكملها ... لقد راهنت على هذا الشاب بالكثير ... وبسمعتي ... ماذا أفعل ؟ .

— لا نخشى شيئاً ! الطب يصنع المعجزات . العواطف كلها مجرد تفاعلات كيميائية ، ولكل عاطفة عقار ...

— انه يبكي أحياناً ويقول انه مكسور الروح ! ..

— لا يوجد شيء اسمه الروح ! .. هناك تفاعلات كيميائية ، وسوف أعطيه العقاقير التي تضمن التفاعل المطلوب ... الانسان عجيبة ، والعلم هو الرب . ضع ثقتك في الطب الحديث ! ..

كابوس

بحثت في كل مكان دون جدوى !..
لم أجد عنوان الفتاة القتيل ، رفيقة « التاكسي » يوم جئت إلى بيروت ...
كان علي ان أسير في جنازتها ... اعتبرت نفسي أرملًا بطريقة ما ، ما دمت
قد فكرت ولو لثانية بالزواج منها ... (ترى هل لها جنازة ام انها في
المشرحة ١٢) لا ... لها جنازة ... ويجب ان تكون كبيرة وفخمة ...
خرجت في الشوارع أفتش عنها ، والغريب انني وجدتتها بسرعة !
كان يتقدم الجنازة بعض العازفين على الابواق ... ثم مجموعة من الاطفال
والكشافة ... وتحملها سيارة سوداء بطيئة مغطاة بالاكاليل ... وخلفها جمهور
كبير من المشيعين . سرت معهم باكيًا لاطمأ ... سألي . أحدهم : « هل أنت
ابن المغترب الفقيد العظيم ؟ » كدت اضربه . انها جنازتها هي ... زوجتي
لدقائق في الحلم ... ثم فجأة تحولت الموسيقى الجنازية إلى معزوفة جاز مجنونة ..
وخرجت يد من داخل التابوت وبدأت ترمي بالزهور عنه ... ثم انكشف
غطاء التابوت وخرجت هي منه ... هي ، توأمي في رحلة بيروت ... وقفت
داخل التابوت (تبارك جمالها ! ...) كانت تفيض حياة وحيوية . وبدأت
ترقص ، ولكن أحداً لم يلحظ لانهم كانوا أمواتاً ... كانت تخلع ثيابها قطعة
إثر أخرى مثل راقصة « ستربتيز » وترمي بها فوق رؤوس المشيعين ... لم
يتنبه لها أحد سواي (فقد كانوا زرق الوجوه منكسي الرؤوس ... كانوا

قافلة من الاموات ، وكانت وهي ترقص في تابوتها اكثر حيوية من
البحر ... وكنت واثقا من من انهم حين يصلون الى المقبرة سيهبطون
جميعاً الى حفرهم قبل أن تفوح روائحهم .) وسنهرب معاً ، أنا
وهي ... وانفجرت أضحك عن غباء أولئك الاموات الواهمين انهم
يشعرون ميتة وهم أكثر موتاً منها ! فليتنظروا إليها كيف ترقص بكل
الفرح الذي يقدر عليه الجسد ... وصرت اضحك اضحك اضحك ...
وأصفق لايقاع رقصتها ...
ضربني أحدهم ورموا بي على الرصيف خارج الجنازة . واختفت هي ...
ظل التابوت مفتوحاً وفارغاً ...

* * *

كابوس

قررت انني في حاجة الى فتاة محبتي واحبها . تسكب الضحك على جدرانني
الموحشة . تغسل بيني وعبوني بالعدوبة والرقعة ...
فيفي سألتني يوم التقينا في نادي القروسية : « هالو . ما هو برجك ؟ »
قلت لها : « لا أعرف برجتي ولكنني اعرف اسمي ... » كانت جميلة
وصغيرة رغم صوتها النشاز . قالت : « لا يهمني اسمك . المهم هو برجك .
يجب ان أعرف اذا كان يناسبني . اذا كانت ابراجنا تسمح بنمو علاقة بيننا ! »
وتابعت مضغ « الشكليتس » بشهية فائقة .
قلت لها أول كذبة خطرت ببالي : « برجتي هو السمكة . » ووافقت فوراً
على الذهاب معي الى شقتي ، فبرج السمكة هو برجها المفضل ، وهي لا
تستطيع مقاومة رجال برج السمكة ، كما انها لا تحب هدر الوقت . اما انا
ففي حاجة الى التقاط أنفاسي . أقنعتها بانني مضطر الى المرور بمقهى « الويمبي »
لارتباطي بموعد سابق سأعتذر عنه .
ركبت معها في سيارتها السبور ... صوت المحرك مروع ، شرس .
حاد . صوت المحرك غيمة من العنف والحقد والهباب الاسود . (اسقط في

القيمة ... أكاد أختنق !) تقول ان صوت المحرك يثيرها ... يهيجها ...
تمسك بيدي وتندس بها بين ركبتيه . (تنكسر اوان نحاسية فوق رأسي ...
هذا الصخب المسعور ... آه .. اشتهي ان أتمدد في حقل من الخس على صدر
انثى ترتجف عذوبة وخجلاً ! آه الرقة الرقة !) تدير هي شريطاً عليه
تسجيل لصوت اقلاع سيارتها ولصوت جنون محركاتها . ترفع الصوت حتى
آخره ... وتضحك وتبدولي اسنانها مثل اسنان مصاصات الدماء ... اخاف ...
يجلدني الملع وأبكي ... توقف سيارتها فجأة وتأملني باهتمام : « وانت ايضاً
تنتشي مثلي مع ذروة دوران المحرك ؟ أوه ! » سنكون « كوبل » ثنائياً رائعاً ...
احبك .. بالمناسبة ، ما اسمك ؟

في المقهى طلبت الفتاة كوباً من « بلودي ماري » (الفودكا بعصير
البندورة) ... شربته برشفة واحدة ، وعادت تلك النظرة القاسية الشيطانية
تطل من عينيها وشعرها الاحمر المجعد .. بعد ان انتهت كأسها ، أمسكت
« الشاليمو » وفي بساطة أدخلت « الشاليمو » في شرباني بدلاً من الكأس ،
وبدأت تمتص دمي بـ « الشاليمو » مباشرة ... تمتص تمتص ... وشعرت
بالدوار ... وصرخت بها : « انتزعي هذا الشاليمو من عروقي يا مصاصة
الدماء ! » تأملتني بدهشة من يرى سرطاناً في كوب حليبه الصباحي ،
وتظاهرت بالانزعاج . وبدأت اشتمها : « هل تظنين انك تستطيعين خداعي
يا ساقطة ؟ ! كل ما تريدينه هو امتصاص دمي ... سأشتري لك ليرات
دم من « بنك الدم » ولكن دعيني وشأني ! .. »

وهربت منها ، وسمعت أهل المقهى يهمسون : « مجنون ... مجنون ... »
وحزنت لاجلهم . انهم جميعاً مجانين وعميان ... كل ما في الامر انهم
لا يلحظون ان حبيباتهم يغرسن « الشاليمو » في شرايينهم لشرب دمهم ...
صرخت أنبههم الى ذلك ، لكن زبائن المقهى جميعاً ضحكوا ...
غريب أمرهم في هذه المدينة .. لقد طردني الجرسونات ، فتابع
جولتي على بقية المقاهي أنبههم الى ذلك ، لكن احداً لم يلتفت إليّ ... أحدهم

تأملني قائلاً : « أليس هذا هو النجم الحديد فرح ؟ » ردت فتاة ترافقه :
« غير معقول ، لكنه يشبهه قليلاً ! »

* * *

كابوس

لم يعد في داخلي رجلان يقتتلان . أحدهما قد مات وانتهى الامر ...
في داخلي رجل ميت احمله وأدور به .. انه ليس ميتاً بالضبط . انه
يستيقظ احياناً فنبكي معاً ...
شيء غامض في الجنازات يجذبني إليها ... لا أدري لماذا ابحت عنها
واسير فيها ؟!

اليوم شاهدت جنازة مذهلة ... التابوت مغطى بالبياض ، الناس يرقصون
في الجنازة ويرتدون الابيض ... كل شيء يلتمع تحت أشعة الشمس والاصوات
بدت بيضاء . وخلعت ثيابي كلها لاشارك في الرقصة المذهلة ... ضربوني لانني
تعريت وقالوا اني مجنون ! (لقد ولدت عارياً وسأدفن عارياً وأحب
التجول عارياً كسمكة !)

نشان اخرجني من مخفر البوليس ، ولم تكن الشمس هناك حين خرجت :
مثير هو عالم الجنازات ! لا توجد جنازة تشبه اخرى ...
ومع ذلك ، كل الجنازات متشابهة بطريقة ما ... يربطها خيط واحد
شفاف لا يرى ولكنه قريب منا .. قريب جداً قرب حبل المشنقة من رقبة
لف حولها !..

* * *

كابوس

صارت لي صديقة أحدثها ...
اشترت لها تاجاً من الماس الاصطناعي ومنديل عروس ... وضعت
المنديل فوق رأسها وفوق التاج ... وبدت جميلة وساحرة ...
حين جاء نشان سألتني بدهشة : « من اين جئت بهذه الجمجمة ؟ .. ولماذا
تضع فوق رأسها اكليل عروس وتاجها ؟ ! »

حاول ان يرمي بها من الشرفة لكنني وعدته بأن افعل ذلك بنفسني .
وانقذت حياتها منه ... وتجاهلت عتابه لي على تصرفاتي « الجنونية » التي
ستدمر « مستقبلي » ...

* * *

كابوس

قرر نيشان أن علي ان اذهب الى دكان بائع « البيروكات » لاختيار
المناسبة منها لفيلمي الجديد ، ورافقني مساعد المخرج « أو شي » من هذا القبيل !
كنت هادئاً اتقبل كل أوامر نيشان كعادي كي اصير ثرياً ومشهوراً مثله ...
ولكن أمراً غريباً حدث لم يتنبه اليه أحد سواي .
في الدكان ، جاءني بائع « البيروكات » بمجموعة من الرؤوس البشرية
المقطوعة التي لا تزال تقطر دماً وقال لي : « اختر الشعر الذي يعجبك ! ..
الرأس بخمسين ليرة . »

كانت الدموع تغطي وجوههم ... وشفاههم تتحرك دون ان يصدر أي
صوت عن حناجرهم المقطوعة ... كانوا يريدون ان يقولوا شيئاً ...
وقال مرافقي : « جرب هذه . »

حمل الرأس المقطوع واذا به مجوف من الداخل . ووضعته فوق رأسي
وبدأت قطرات الدم البارد . نصف المتخثر ، تسيل على وجهي ..
وبدأت اصرخ وانطلقت هارباً ... امسك بي صاحب المحل وقال :
« اذا لم تعجبك سنحضر لك طلبك .. اعطنا مواصفات أي رأس فنحضره لك .
بل حدد أي رأس يعجبك في الطريق لنحضره لك .. كل رأس له ثمن .. كل
شيء ممكن عندنا . »

واستل سكيناً طويلة ، نصلها رفيع يلتصق تحت أشعة الشمس . استعداداً
لاحضار رأس أي عابر سبيل يعجبني شعره وأريد اتخاذه « باروكة » لي .
وهربت ...

* * *

كابوس

في المطعم كان نيشان يتحدث والمنتج عن ثمني ويحددان لي سعراً ...
على الجدار قرأت هذه العبارة بالانكليزية : « السمكة التي تأكلها اليوم
كانت تسبح بالامس . »

سألت نيشان عن المقصود . أجاب ممتعضاً : « المقصود ان سمكهم
طازج . »

وعاد إلى حوارهِ : « خمسون ألف ليرة فقط ؟ ! لا ريب في انك تمزح ! .
ضرب أرقام السوق في شهر ... انه نجم الغد . »

وجاؤوا بالسمكة امامي . واكتأبت وانا أفكر في انها كانت بالامس
فقط تسبح ونحيا ، وان كل لقمة تتطلب جريمة بطريقة ما ... وحين جاؤوا
بها في الصحن ، تمللت السمكة تحت الليمون والبقدونس الذي غطوها به ،
ونهضت ضاحكة تتأملني بعينها الواسعتين اللتين بلا رموش : « هل
ستأكلني حقاً ؟ »

— لا أدري ! ..

— ولكنني ما زلت حية ...

— لا أدري ! ..

— وسعيدة وأرغب في الحياة ... وانت ؟

— لا أدري ! ..

— احملني وأعدني الى البحر ... هل ستفعل ؟

— لا أدري ! ..

— لماذا أنت حزين هكذا مثل سمكة مطبوخة في فرن قدر ؟ ..

— لا أدري ! ..

— ماذا تفعل هنا ؟

— لا ادري ! ..

— انك تبدو كسمكة ميتة ... لماذا لا تتمدد في صحنني بدلاً مني ؟

— لا أدري !..

— بالبقدونس سيحشون فمك واذنيك حتى يخرجوه من افك ،
وسيفطونك بصفائح الليمون ، ويمددونك في صحن كبير من الفضة ، ويقدمك
نيشان في وليمة كبيرة . هل ترغب في ذلك حقاً ؟..

— لا أدري !..

— هل ستعيدني إلى البحر ؟..

— لا أدري !.. »

* * *

كابوس

توقف السائق أمام حاجز رجال الشرطة . قال الشرطي : « تذكر ...
هويات ... باسبورات !.. » تقدم مني كلب ضخم وبدأ يشمني وهو يشخر
بصوت مرعب . تذكرت الضبع في حكايا أمي ... أمي ، اين مني أمي
وقريتي وكل ما كان ؟! . اشعر بأنني شخص آخر ، شخص لا يعرفني ...
انا لم أعد اعرف أنا ... كرر الشرطي بقسوة : « تذكركم » ، وعوى
الكلب ، وغمرتني سحابة من الضجيج والقسوة ... أخرجت تذكرتي
وتأملتها ... الصورة فيها ضاحكة . هذا ليس وجهي ! فرح ؟ هذا ليس اسمي !
هذه الورقة لا علاقة لي بها !

ومزقتها

لم يفهموا . حملوني الى المخفر . عند الصباح اخرجني نيشان .

* * *

كابوس

استيقظت ووجدت نفسي معبأ داخل علبة « كونسروة » ... جدرانها
شفافة لكنني عبثاً استطعت اختراقها ...
حملني نيشان في جيبه وانا داخل العلبة اكاد اختنق ، وذهب بي الى أحد
مخازن بيع الالبسة حيث يصورون فيلماً ، وحين وصلنا اخرجني من جيبه

ووضعتني على مقعد جلدي جميل . لم أرَ في حياتي كلها مكاناً لبيع الالبسة كهذا المكان ... له « ديكور » قصر ... الجدران الرخام ، والرياش في كل مكان ، والسجاد تغوص فيه الارجل ، والمرايا ... والاضواء .. ولكن بدا لي ان كل شخص سجين داخل علبة « كونسرو » وان احداً لا يسمع الآخر ولا أحد يلمس الآخر ، ومع ذلك يتحدث الجميع في وقت واحد ... الممثلة جميلة وشبه عارية ... انها تضرب جدران العلبة المحيطة بها ... تضربها بقبضتيها وتصرخ ...

المخرج يصفعها ...

أغمض عيني وأبكي سرّاً داخل علتي ...

(لا استطيع احتمال موت الرقة في هذا العالم .)

ساعات انقضت ؟ لا أدري ! .. نيشان يقول لي : « أحببت اطلعك على العمل من الداخل كي تعرف ما يدور حين تقف أمام الكاميرا - للمرة الاولى - قريباً . »

توقف التصوير .

تركوا الاضواء الوحشية مسلطة على وجهي وعلى المكان وبدت الظلال قاسية وحادة وغير انسانية .

خرج أكثر العاملين من المكان ...

فرقعات صغيرة ، ودارت كوؤوس الشمبانيا ... شربت كثيراً ... كثيراً .. تحولنا جميعاً الى كومة واحدة من اللحم العاري . صرنا اخطبوطاً جهنمياً تخرج منه الاذرع والسيقان العارية والآهات ... وكنا نتقلب فوق العدسات الحارة والآلات الحديدية الحادة الاطراف كالسكاكين ...

وكان وجه نيشان قريباً جداً من وجهي ... ملتصقاً بي ... فتحت عيني وحذقت به ووجهه ملاصق لوجهي ... كانت له عين واحدة في منتصف وجهه كغول الاساطير ... وكانت علبة كبيرة واحدة تضمنا جميعاً ... كنا كعلبة سردين عفنة الاجساد ...

وبدأت اصارع لانيخرج ...
وأصرخ : هذي سدوم وعمورية ولكنها معلبة !.

* * *

كابوس

فتحت عيني ... الجدران بيضاء . الاثاث شبه ابيض . انا ممدد في سرير
وامامي امرأة ترتدي ثياب المرضعات . كان انبوب مطاطي طويل يخرج من
ذراعي متصلاً بكيس المصل . وصوت يهمس : « انهيار عصبي » . اذن
أنا في المستشفى . ماذا حدث ؟ ماذا يفعلون بي ؟..
تأملت الممرضة ... تضع قبعة بيضاء ولها رأس خنزير بري ... كل
الممرضات هن رؤوس خنازير أو بنات آوى . ثم جاء الطبيب ووضع سماعته
على أذنيه الكبيرتين وكان له رأس فيل ...
وبدأت اذكر ما حدث ...
كنت في سيارة ما . اصطدمنا بشيء ما . فتحت عيني وانا انزف وأبكي
وكل عضو من جسدي يؤلمي ...
وكان رجل يصرخ : « لا استطيع إدخاله ... لا نقود في جيوبه ولا نعرف
هويته ... » واقرب مني وجه يسألني : « ما اسمك ؟ ما اسمك ؟ .. » خيل
الي انه الطبيب وحاولت ان أتوسل إليه وأستعطفه فلم يخرج صوتي . وهمس
في أذني :
« — هل معك نقود ؟ .. »

... —

— هل تستطيع ان تدفع لي اتعابي اذا عاجلتك ؟ ..

... —

— اذا كنت لا تملك نقوداً تركتك تنزف حتى الموت . « معك قرش

بتسوى قرش » .

... —

— نقود . نقود . هل تفهم ؟ ..
وأخرج من جيبه ورقة نقدية كبيرة فقأ بها عيني
ثم وجهه نيشان ...

تقدمت الممرضة وهي تحمل بحوافرها كيساً من المصل . حين اقتربت
مني لاحظت ان كيس المصل هو زجاجة ويسكي . علقتها وبدأ الويسكي
يسري الى دمي قطرة قطرة ... وكان الجميع يضحكون بلا مبالاة ... وبدأوا
يرقصون ويغنون والطبيب يرمي بسكاكينه ومشارطه في الهواء ، ثم صاروا
يتقاذفون اعضاء المرضى التي استأصلوها ... وصرت اصرخ وأحاول انتزاع
ابرة مصل الويسكي من ذراعي ، لكنهم ربطوني بأمعاء رجل ولفّوها حولي
كالجبال ... وقيدوني بها بلا حركة ... وفاحت رائحة كريهة ...
وقبل ان يغمي عليّ شاهدت طبيباً يضاجع ممرضة فوق نقالة العمليات ...

* * *

كابوس

في صالة المزاد العلني اوقفوني عارياً فوق منضدة كبيرة . وأحاط بي
رجال كهول ونساء هرمانات ، وكان الثراء يتدفق من ثيابهم ومجوهراتهم
ونظاراتهم المبعّدة المطعمة بالمالس ومباسم سجائرهم العاجية المذهبة الطويلة
وقفازاتهم الحريرية . قال نيشان : « عريس لقطة للبيع ... من يشتري لابنته
عريس لقطة ؟ من تشتري لصقيع شيخوختها عريس لقطة وارد قرى
سورية ... وشباب وصوت جميل ومستقبل شبه مضمون ؟ .. »
لم اكن عارياً تماماً . كنت اغطي نصف وجهي بحجاب جارية مطعم
باللؤلؤ ، ومن خصري تبدل شال من الحرير الازرق الشفاف . وقال نيشان
مبتهجاً : « على اونا ... على دوي ... بعنا . » رسا المزاد على المغترب المرحوم
علوان بك العلوان ...

« مبروك البيعة — همس نيشان في أذني — هذا الزواج دعاية باهرة ...
ثم انه سيقولك فنياً ... والدها ثري ومشهور ... شد حيلك ! »

كابوس

المفروض انني الآن رجل متزوج . والمرأة الملتصقة بي في الفراش هي زوجتي وعلي ان ... وان ...

ولا أشعر بأي رغبة ... ولكن ... أمسكت بذراعها . كانت ثقيلة ، وكان الظلام دامساً . وشعرت بالذراع تخرج في يدي .. رميت بالذراع المقلوعة من على الفراش وأمسكت بالذراع الاخرى ... خرجت من الجسد ايضاً ووجدتها في يدي مجرد ذراع فرميت بها من على الفراش ... أمسكت بالرأس وجذبتة إليّ في محاولة يائسة مني لامتلاك عروسي فخرج رأسها من جسدها وبقي بين يدي مجرد رأس مقطوع لا دماء فيه .. رميت به من على الفراش إلى الارض ، وكان لسقوطه صوت اجوف كصوت سقوط الاواني الفارغة ، وأمسكت بساقها .. خرجت ساقها بين يدي ... ورميت بها من على الفراش ، وأمسكت الساق الاخرى فخرجت ايضاً من الجسد ...

أمسكت بما تبقى من الجسد وبحثت عن ثدييها ، وكانا بلا حلمتين ، بحثت عن بقية « انوثتها » فلم أجد شيئاً ابداً ، فقررت انه ليس هنالك ما أفعله ونمت . وفي الفجر حين استيقظت وجدت نفسي في الغرفة وحيداً ، وكانت أجزاء عروس لا تزال مرمية حول الفراش على الارض ... ومع أول خيوط الشمس لاحظت ان عروسي كانت تمثال عرض ازياء للواجهات ... مجرد تمثال عرض ... فلماذا غضب نيشان حين هربت ١٩ .

* * * *

كابوس

ليلة حفلي الغنائية الكبرى ...
الناس يغطون المقاعد والجدران والسقف .. ومذيع يقدمني بألفاظ خرافية ... وانا أطل لاغني ... انا بكل القهر في داخلي ، بكل الحيرة وكل الضياع ... انا أنفجر ..
وبدأت أغني بصدق ، وبدأ الجمهور يضحك ... وانا اغني ... والجمهور يضحك ...

الفرقة الموسيقية تنسحب . نيشان يضرب على رأسه بيديه كليهما ...
قالوا اني كنت اعوي مثل كلب مذبح . لم أغن كلمة واحدة ... فقط كنت
أعوي واعوي على الجمهور ...
أقسمت له اني كنت أغني ...
لم يصدقني احد . نقلوني الى المستشفى وقالوا أني مجنون ...

* * *

برد . برد .

برد يخرقني حتى قاع عظامي .

وهذا الشتاء الطويل لن ينتهي ابداً ... ابداً . وها انا قابع في نجبائي منذ
لا أدري متى ... اعرف انهم سيبحثون عني في كل مكان ، واذا وجدوني
سيضربونني ، سيضربونك يا فرح يا مسكين ، وسيغرسون أنيابهم في القلب
تماماً . سألهث كالارنب .

سيدخلوني في الثوب الابيض ويقيدون ذراعي . ينقلوني الى المستشفى
كما في المرة الماضية .

سأبكي ، أبكي ، أبكي .

وسيسلطون مياههم الباردة على رأسي ... سيربطوني الى السرير القذر
في حمام التعذيب . يحيطون رأسي بقبعة حديدية تخرج منها عشرات الاسلاك .
يسلطون كهرباءهم على دماغي ويمنعوني من الغناء ... لا ، لن يأخذوني هذه
المرة ...

سأقسم لهم انني لست مجنوناً ولكنهم هم المجانين ولن يصدقني احد .
سأقسم لهم بأن كواييسي حقيقية وتحدث فعلاً ، وتحدث لهم ايضاً . كل
ما في الامر هو انهم لا يلحظونها لانهم مشغولون بأشياءهم الصغيرة ولن
يصدقوني ...

برد . برد . برد يخرقني حتى قاع عظامي ...

وانا قابع في نجبائي ريشما يحل الظلام وانطلق هارباً الى قريتي . ما تبقى
مني عائد الى دوما . اعرف ان شيئاً لن يعود كما كان ، لكنني سأهرب وأعود

الى حضن أمي الارض . يجب ان أظل مخبئاً دونما خوف من كوابيسي . يجب ان أكون حذراً في هربي ، فنيشان مصمم على الانتقام بكل ما تبقى له من نفوذ ومال . انه يريلني في مستشفى المجانين للانتقام مني وتعذيبي ، لا لشفائي . انه هو المريض لانه قادر على التكيف مع مجتمعه المريض ، أما انا فمعافى ، ولذا عجزت عن اكمال شوط الجنون في مسيرة السقوط .

آه يوم جئت الى بيروت كانت قامتي أطول من الليل ، والبحر كله لا يكفيني فراشاً ، وخيمة الظلام المثقوبة بالنجوم كان يخيل الي انها ستضيق عن استيعاب طموحي ... وكل نساء بيروت لن تكفيني ... كل مطاعها لن تسد جوعي ... كل صحفها لن ترضي غروري آه كيف انشطرت ... كيف تناثرت ، وها أنا اليوم الملم نفسي في مخبأي الحقيق خلف سقط المتاع ...

لقد انحسرت عني بيروت ، ولفظتني الى الشاطئ صدفة فارغة ووحيدة .. اسمع باستمرار صوتاً ينتحب في داخلي كصوت الصدفة ... آه ... بيروت كيف كيف كيف ؟!

كابوس

حين هربت من المستشفى كان أول ما فعلته هو اني سرقت عن المدخل لافتها : « مستشفى المجانين » ...

حملت اللافتة الى مدخل بيروت ، واقتلعت اللافتة التي تحمل اسم « بيروت » . وغرست مكانها اللافتة الاخرى ...

وانفجرت أضحك وانا اقرأ « مستشفى المجانين » ، وخلف اللافتة أطلت بيروت في الفجر مثل احشاء وحش جهنمي يتأهب للانقضاض ... وعدت هارباً الى وكري ...

بدأت كتابتها ٩ تشرين أول ١٩٧٤ .

تمت كتابتها كمسودة يوم ٢٣ تشرين أول

١٩٧٤ الساعة ١١,١٥ .

تمت كل التعديلات وتوقف العمل فيها يوم

٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ الساعة ١,٣٠ .

الأعمال غير الكاملة غادة السمان

صدر منها :

- ١ - زمن الحب الآخر الطبعة السادسة
- ٢ - الجسد حقية سفر الطبعة الرابعة
- ٣ - السباحة في بحيرة الشيطان الطبعة الخامسة
- ٤ - ختم الذاكرة بالشمع الأحمر الطبعة الخامسة
- ٥ - اعتقال لحظة هاربة الطبعة الخامسة
- ٦ - مواطنة متلبسة بالقراءة الطبعة الرابعة
- ٧ - الرغبة ينبض كالقلب الطبعة الثالثة
- ٨ - ع . ع . تنفرس الطبعة الرابعة
- ٩ - صفارة انذار داخل رأسي الطبعة الثالثة
- ١٠ - كتابات غير ملتزمة الطبعة الثانية
- ١١ - الحب من الوريد الى الوريد الطبعة الرابعة
- ١٢ - القبيلة تستجوب القتيلة الطبعة الثانية
- ١٣ - البحر يحاكم سمكة الطبعة الثانية
- ١٤ - تسكع داخل جرح

منشورات غادة السمان

بيروت - لبنان ص . ب : ١١١٨١٣

تلفون ٣١٤٦٥٩ / ٣٠٩٤٧٠

مؤلفات غادة السمان الأخرى

| | | |
|-----------------------|---|------------------------|
| عيناك قدري | - | الطبعة العاشرة (قصص) |
| لا بحر في بيروت | - | الطبعة التاسعة (قصص) |
| ليل الغرباء | - | الطبعة الثامنة (قصص) |
| رحيل المرافىء القديمة | - | الطبعة السابعة (قصص) |
| حب | - | الطبعة التاسعة |
| بيروت ٧٥ | - | الطبعة السادسة (رواية) |
| اعلنت عليك الحب | - | الطبعة التاسعة |
| كوابيس بيروت | - | الطبعة السابعة (رواية) |
| ليلة المليار | - | الطبعة الثانية (رواية) |
| غربة تحت الصفر | - | الطبعة الثانية |
| الاعماق المحتلة | - | الطبعة الثانية |
| أشهد عكس الريح | - | الطبعة الثانية |

منشورات غادة السمان

بيروت - لبنان ص . ب : ١١١٨١٣

تلفون ٣١٤٦٥٩ / ٣٠٩٤٧٠



□ إن ظلم الاستبداد يستجند
بالظلم الاجتماعي ، ولا خلاص
إلا بإرادة الإنسان وفعله الثوري
لتغير حياته . هذه هي ميزة عادة
السيان الفكرية الأساسية : الوعي
بوجودي لسياسة الإنسانية
المعاصرة والعكاساتها على الأمة
العربية المعاصرة ، كإفراد
وكشمج .
- رياض عصمت



□ تقنية عادة السيان في هذه الرواية متقدمة جدًا .
- عبد الرحمن محمد الربيعي

□ الحدث الروائي في «يدوت ٧٥» هو مجموعة أفعال متقاطعة تتداخل لوجائها ،
وهو حدث عادي وبسيط ، إلا أن غمضة الرواية تتمثل في مزج الواقع بالحلم ، والمعقول
باللامعقول ، والصادق بالقصير ، والوجدان الفردي بالوجدان الجمعي ، والحياة
بالفوت . في جدلية معيومة ، في مفارقة تقلب منطق الوعي ، حيث الأحياء يموتون والموت
أحياء ، ويلون من العت ، حيث يصبح الجنون عقلًا والعقل جنونًا .
- عبد اللطيف الأرنؤوط

□ عادة السيان بعد ما تكون عن توظيف الجنس للابتزاز ، لأن القصة عندها في
كل حدث درامي تعرض نفسها بأسادية ، وليس كعادة من يدافع عن شرارة المرأة والقيم
الإنسانية دوماً وعط . الحرية عند عادة السيان ليست انقلاباً لها مسؤولية وعي وممارسة
وإدراك .
- عبد الله الشبي

□ ولقد كانت رواية عادة السيان - الأولى والكبيرة - أسطورة النبوة . فاصفت إلى
الرواية العربية الحديثة رصيدها ثميناً بالتجربة والمعاناة إلى حد الاحتراق . كل أصابت إلى
معنى الألام والثورة صياغة جمالية تروى إلى حد السؤ . لقد انتهت عادة السيان من
كتابه هذه الرواية في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٤ . ولم تكن تقضي خمسة أشهر حتى اندلع
الحجيم اللسان من تحت الرماد الأزرق .
- عالي شكري

منشورات عادة السيان

To: www.al-mostafa.com